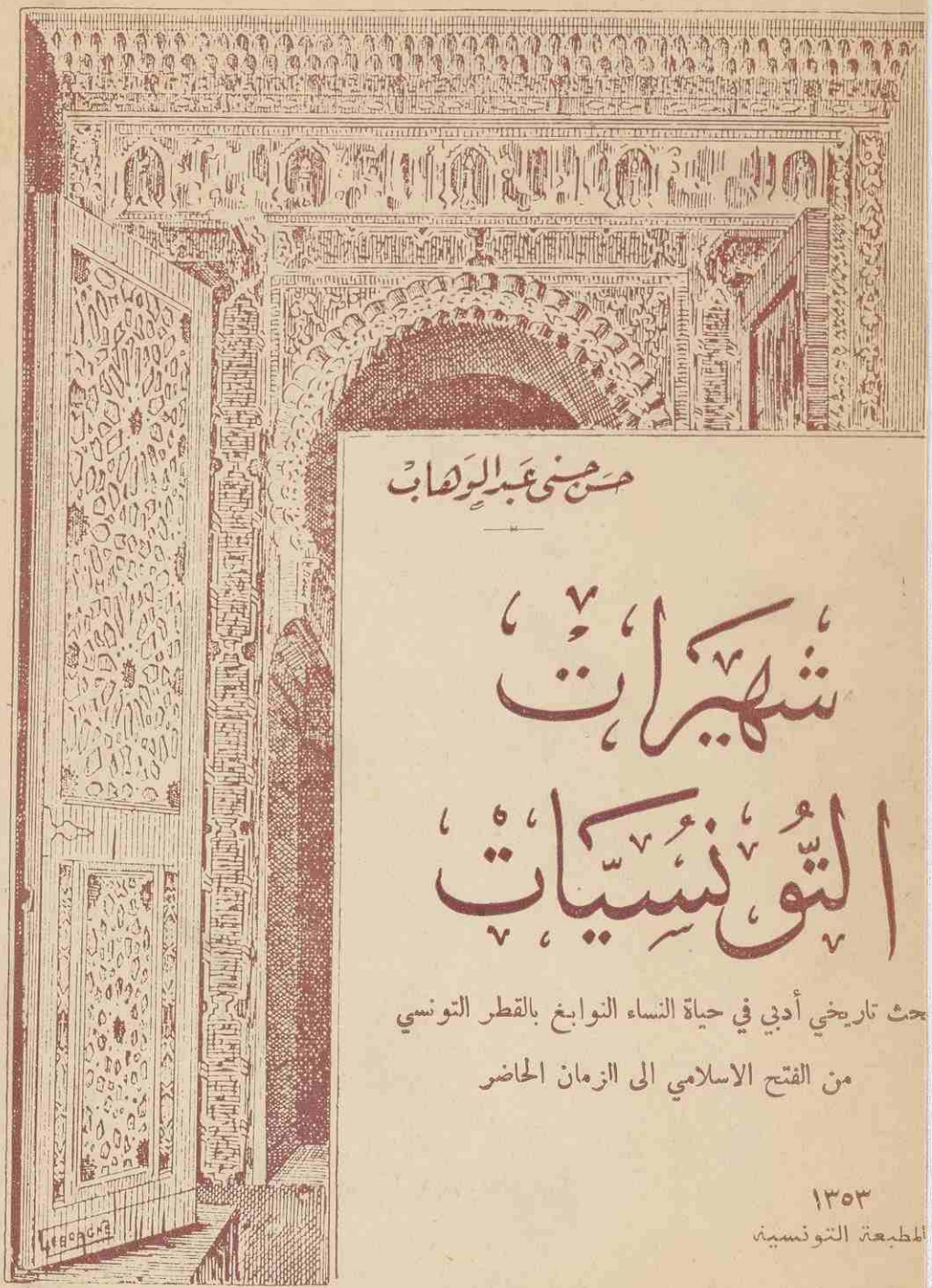

حسن حسني عبد الوهاب

شهيرات التونسيات

بحث تاريخي أدبي في حياة النساء النوابغ بالقطر التونسي

من الفتح الاسلامي الى الزمان الحاضر

١٣٥٣

المطبعة التونسية

الى حبيبة الفنون العربية السيدة ريشار أتنهوزن المحترمة
تذكارا لزيارتها الى تونس الخضراء

عن تونس - ٦ نوفمبر ١٣٦١

عبد الوهاب

'Abd al-Wahhab, Hasan Husni
"

اهداء الكتاب

الى أم الكرام نائلة عبد الوهاب

/ Shahirat al-Tunisiyat /

بنيتي !

لم يرزقني الله من البنات - لحد الآن - بغيرك ، لذا وددت ان اهديك عقدا تندمج في سمطه جواهر حسان ، ويواقيت ثمان - حور مقصورات في الخيام - يزري شعاعها بالكواكب ، والنجم الثاقب .

فطالعي بنيتي اشراق سناها ، تجدي سراجا وهاجاً يضيء حياتك ، ويهديك صراطا سويا ، فتنالين مرضاة ربك ، وابتهاج تربك .

والباري أسال ان يلهمك اقتفاء أثر الفاضلات من التونسيات ، فتكوني من الباقيات الصالحات ، انه تعالى مجيب الدعوات

أبوك

30-59

Richard & Elizabeth S. Ettinghausen

HQ
1792
.A63
1934

FEB 10 2000

توطئـــة

« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه »
(قرآن شريف)

تبارك الذي كرم تونس بين البلاد ، وغمرها بالمحاسن الواضحة الاشهـاد ، وفضلها على الامصار ، بموقع مختار رق به هواؤها ، وعذب ماؤها ، وصفا أديمها ، وزكا شميمها ، فنجومها زاهية زاهرة ، وأشعة شمسهـا نيرة باهرة ، فجرها شقيق ، واصيلها عقيق ، رزقها موفور ، وعيشها ميسور ، ونزيلهـا بانواع الخيرات مغمور :

ويزيدها مر الليـالي جـدة وتقادم الايام حسن شبـاب

فسبحان من خص هذا القطر المحبوب – على صغره – بكرم التربـة ، ومحاسن الاربة ، وميزه بالخير العميم ، والنيل الجسيم . وجـل من اثمر أفنانه ، وهدل دوحه واغصانه ، بابنآء نبغآء – رجالا ونسآء – زينوا وطنهم بخصال حميدة ، وفعال سديدة ، وحكم رشيدة ، خلدت ذكراهم ، وعطرت شذاهم ، على مـدى العصور ، وتوالي الدهور :

واذا عظـم البـلاد بنوهـا أنزلتهم منـازل الاجـلال !

028228362

***

في خلال العام الماضي جرى بيني وبين احد الاصدقاء الاعزاء - وهو السيد عبد الرحمن الكعاك - حديث في شان التأليف المسمى ﴿ الدر المنثور ، في طبقات ربات الخدور ﴾ الذي دبجته يراعة الكاتبة المصرية الخطيرة زينب خانم فواز في التعريف بالمتقدمات من النساء في كل قطر ومصر . وعلى ذكر هذا التصنيف تحركت بواعث الشجن في نفس ذلك الصديق فاظهر أسفا شديدا على خلو تاريخ هذا القطر من اخبار نابغات تونسيات يؤلف في ذكرهن مثل ذلك الكتاب حتى نفاخر بعبقريتهن الشرقيين ، ونباهي بمداركهن الغربيين ، فبادرت الى مسايرة ما علق بنفس صديقي وكشفت له القناع عما حضرني من تراجم العقائل ، والنابغات الاصائل ، اللائي عطرن أديم هذا القطر بشذى فضلهن ، وسارت الركبان بحديث شهرتهن ، وهو من أقطع الادلة على رسوخ الحضارة الاسلامية وتأصلها في هذا الاقليم ، وعراقة اهله في المدنية والتعليم ، فكنت كلما اذكر له اسما ، واوضح له رسما ، الا ويزداد جذلا وسرورا ، وفرحا وحبورا ، وقد ادى به فرط الدهش والاعجاب مما كانت عليه المرأة التونسية في غابرها من العلم الجم ، والكمال الاتم ، ان اقترح علي تأليف عجالة ألمع فيها الى ذكرهن تكون مرجعا لطلاب الفوائد ، ونموذجا للراغبين في اقتناء الشوارد ، فاعتذرت له بكثرة الشواغل وعدم خلو البال ، وفوق ذلك فأني لي بيراع زينب فواز في المتأخرين ، او ببلاغة أبي عبيدة مدون اخبار النساء في المتقدمين ، فلم يزده هذا العذر الّا اشتدادا في الرغبة والحاحا في الطلب حرصا منه - جازاه الله خيرا - على ترصيع اكليل تاريخ هذه البلاد المأنوسة بتلك الدراري الكريمة ، والجواهر اليتيمة ، فلم أجد بدا من القبول ، وسألت الله ان يعينني على جمعه وهو نعم المسئول .

فانتهزت لتحبيره وتحريره سويعات الفراغ وانا مقيم على هذا الشاطيء ايام القيظ ، وكانت خير معين لي على انجازه ، فواليت العمل في ابرازه ، ولي المعذرة اذا لم يكن موفيا بالمرام ، فقد توخيت غرضا لم يُجل فيه اقلام التونسيين من قبل حتى يكون لي ذلك مسندا ارجع اليه ، او مصدرا اعتمد عليه ، وانما هي نبذ متفرقة اقتطفتها من سياق الكلام فاجتمعت ، ونتف مبعثرة بين المصنفات التقطها فائتلفت .

وغاية المامول ان تحظى هذه الوريقات بالقبول ، لدى شبيبتنا الحازمة خصوصا المصونات عقيلات هذا الوطن ، وان تقع لدى جميعهم الموقع الحسن ، وحسبي الله كافيا ومعينا .

تحريرا بشاطيء خير الدين
سلخ رمضان المبارك ١٣٣٦

الدور العربي

امتزاج العناصر

تسنى للامة العربية ان تفتح ممالك العالم القديم بتأييد من الحق تعلى ، فانتصب الفاتحون بتلك الاقاليم واتخذوها وطنا لهم ولاعقابهم من بعدهم ، فكان الغزاة يفدون على البلاد شرقا وغربا ثم يتخيرون مواقع لاقامتهم — كالقيروان مثلا — ولما يستقر بهم المقام — بعد جلب عيالهم واقاربهم وعشيرتهم — يختطون الدور فالمساجد فالقرى فالمدن . وهكذا جرت عادتهم في الفتح والعمران (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

وقد كانت لمجاهدي العرب رغبة في نكاح البنات من أهالي البلاد المفتوحة سوآء على وجه التسري من السبي والجواري أو بمصاهرة البيوتات العريقة ترغيبا لهم في اتباع الشريعة الاسلامية وذلك لما للمصاهرة من التأثير العظيم في ربط علائق الالفة وأواصر الصداقة وحسم الخلافات وابادة الضغائن والاحقاد .

وبهذه السياسة المثلى تمكن العرب في زمن قصير من ادغام الامة البربرية — وغيرها من الامم — في العائلة الاسلامية الكبرى . فلم يمض قرن حتى تشخصت

النهضة العربية في احسن مظاهرها حيث اصبح جل سكان افريقية الشمالية مبتهجين بانتمائهم الى قحطان وعدنان ، آخذين من العرب مبداهم الديني ولغتهم وعوائدهم، ومن يطالع التاريخ التونسي ير في ذلك عجبا .

على ان امتزاج العنصر العربي بمن عداه لم يكن قصد الفاتحين منه مجرد الاقتصار على متعة الزواج بنسآء بربريات ، بل كانت لهم مطامح أسنى من ذلك ، وحسبنا دليلا ما اورده أيمة التاريخ .

نقل ابو الفرج الاصفهاني في « كتاب النسآء » من تأليفه [1] قال : « كتب هشام بن عبد الملك الى عامله على افريقية (وهو عبد الله بن الحبحاب) : اما بعد فان امير المؤمنين لما رأى ما كان يبعث به موسى بن نصير الى عبد الملك بن مروان رحمه الله أراد مثله منك ، وعندك من الجواري البربريات المائسآت الاعين ، الآخذات بالقلوب ، ما هو معوز لنا بالشام وما والاه ، فتلطف في الانتقاء ، وتوخ أنيق الجمال ومع ذلك فاقصد رشدة المولد وطهارة المنشأ ، فانهن يتخذن امهات اولاد ، والسلام » هذا ما كان يكتب الخلفآء الى عمالهم بافريقية على عهد بني امية . اما في دولة بني العباس فقد جآء في كتاب « المسالك والممالك » ما نصه : [2]

« واما ما يجهز من المغرب الى المشرق فالمولدات الحسان اللآتي استولدهن

---

(١) من ك « تحفة العروس » لابي عبد الله محمد التجاني التونسي طبع مصر سنة ١٣٠١ ص ٦٨

(٢) المسالك والممالك : تأليف ابن حوقل البغدادي الرحالة الشهير الذي زار شمال افريقية اوائل القرن الرابع للهجرة وتجول في انحائه - طبع ليدن سنة ١٨٧٢ ص ٦٩

بنو العباس وغيرهم وولدن غير سلطان عظيم (كسلامة البربرية ام ابي جعفر عبد الله المنصور ، و (قتول) أم ابي منصور محمد القاهر بن المعتضد وغير من ذكرت من ملوك المشرق وامرآئه . »

ولا يخفى ما في هذه السياسة الصائبة من الحكمة البالغة في مصانعة الامم المغلوبة ومراعاة ميولها .

ولم يكن ذلك الزواج قاصرا على امتلاك الفاتحين لعصمة بنات المغلوبين بل الامر بالعكس فان الشريعة الاسلامية كما سوغت للعربي نكاح البربرية جوزت للبربري نكاح العربية سوآء بسوآء لان الاتحاد في الدين جعلهم سواسية في كافة الحقوق . لذلك صار تداول المصاهرة في نمو وازدياد . فطالما تزوج سراة البربر واعيانهم ببنات العرب واشرافهم لا سيما بمناسبة ترحالهم الى المشرق للحج او التجارة او طلب العلم .

حكى ابو الفرج الاصبهاني قال [1] : « حدثني اسحاق عن المدائني ان (حبابة) [2] كانت تسمى (العالية) وكانت لرجل من الموالي بالمدينة فقدم يزيد بن عبد الملك في خلافة اخيه سليمان واشترى العالية بألف دينار . فبلغ ذلك سليمان فقال لاحجرن عليه فبلغ يزيد قول سليمان فاستقال مولى حبابة . ثم اشتراها بعد ذلك رجل من اهل افريقية . فلما ولي يزيد الخلافة اشترتها سعدة امرأته وعلمت انه لا بد طالبها ومشتريها الخ . . »

---

(١) كتاب الاغاني ج ١٣ ص ١٤٩ طبع مصر سنة ١٣٢٣

(٢) هي حبابة المكية جارية الخليفة يزيد بن عبد الملك المشهورة التي مات حبا من اجل موتها .

وروى ابو الفرج ايضا[1] قال : « حدثنا أبو عوف عن عبد الرحمن بن مقرن فقال : بعثني المنصور (هو ابو جعفر الخليفة العباسي) لابتاع له جارية من المدينة وقال لي أعمل برأي ابن نفيس فكنت أفعل ذلك واغشى ابنه وكانت له جارية مغنية قد كلف بها فتى من آل عثمان بن عفان فكان يبيع عقدة عقدة من ماله وينفق ثمنها عليها وابتلى برجل من اهل افريقية ومعه ابن له فغشى ابن الافريقي بيت ابن نفيس فجعل يكسو الجارية واهلها ويبرهم حتى حظي عندهم وغلب عليهم وتثاقلوا العثماني فقضي ان اجتمعنا عشية عندها وحضر ابن الافريقي والعثماني فنزع ابن الافريقي خفه فتناثر المسك منه . وأراد ان يكيده بفعله فجلسنا ساعة فقال لها ابن الافريقي غني :

بينا حبال ذات عقد لبثنة أتيح لها بغض الغواة فحلها [2]

يعرض بالعثماني . فقال لها العثماني لا حاجة لنا في هذا ولكن غني :

ومن يرع نجدا يلفني قد رعيته بجنيته الاولى ويورد على ورد

قال فنكس ابن الافريقي رأسه وخرج العثماني وخمد اهل البيت . »

فانت ترى من هاتين الحكايتين كيف كان ابناء البربر الافريقيين ينافسون اعيان المدينة في امتلاك جارية ويزاحمون في شراء الحظايا والسرايا المشهورات من المشرق فيجلبونهن الى بلادهم .

ولم يبطء الزمان ان اصبح ابناء هذا الخليط الجديد من العنصر البربري يفخرون بحسبان انفسهم من ذوي الاحساب العريقة في البيوتات العربية ويستنكفون ان تمت أحسابهم بالجنس البربري — ولله في خلقه شؤون

---

(١) الاغاني ج ٧ ص ٨٧ (طبعة الساسي)

(٢) البيت لجميل العذري من مقطوع في صاحبته بثينة

إكرام ليلة

كانت سياسة المؤاخاة والمواساة الشعار الوحيد الذي رسخ به قدم الفاتحين في هذه الديار : فمما يجدر بنا ذكره للدلالة على حسن سلوكهم هو ان عبد الملك بن مروان كان وفد أيام شبابه على افريقية مع الجيش العربي الغازي — في حدود سنة ٤٥ — فتعين لفتح صطفورة (عمل بنزرت الآن) وبينما هو سائر ليلا اذ تخلف عن كوكبة الفرسان المصاحبة له ولم يهتد بعد الى الطريق فالتجأ الى كوخ وجد به امرأة بربرية نزل عليها فاكرمت نزله وقامت له بواجب الضيافة خصوصا وقد كان ذلك في فصل الشتآء ، فلما بزغت الغزالة زودته تلك العجوز بما حضرها ودلته على الطريق الى ان بلغ الى رفاقه . ثم مضى زمان وصعد عبد الملك عرش الخلافة الاموية بدمشق ولم ينس بعد ما لاقاه من كرم تلك البربرية . فكاتب عامله على افريقية يأمره بالبحث عنها ولما وجدها بقيد الحياة أمره باجرآء نفقة وافرة عليها وباعفآء عقبها من بعدها من الخراج لاكرامها رجلا غريبا تجهل نسبه ومحتده [1].

فبمثل هذا السلوك الحسن تم للسياسة العربية امتلاك قلوب الشعوب بعد ان ملكت منهم الرقاب — والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

الحفيدة الخطابية

أبهى وأسنى جوهرة يكلل بها تاج تراجم التونسيات اسم الفتية الطاهرة حفيدة الخليفة العادل عمر الفاروق رضي الله عنه .

---

(١) كتاب « المسالك والممالك » للبكري . طبع باريس سنة ١٩١١

﴿ هي زينب ﴾ بنت ابي عبد الله بن عمر اول من بايع بالرضوان واشهر رواة الحديث . فجدها عمر بن الخطاب الخليفة الثاني وعمتها حفصة أم المؤمنين .

وقد اخترنا ان نصدر تراجم التونسيات بذكر هذه الفتية المباركة لانها اول قرشية اشتمل أديم البلاد التونسية على جسدها الشريف .

غزا عبد الله بن عمر افريقية مرتين الاولى سنة ٢٧ مع عبد الله بن ابي سرح وتعرف هذه الغزوة بوقعة سبيطلة او غزوة ﴿ العبادلة السبعة ﴾ والمرة الثانية مع معاوية ابن حديج في النصف الاول من قرن الهجرة . وفي اثناء هذه الغزوة عند ما كان الجيش الفاتح بقمونية [١] . ماتت زينب المترجم لها ودفنت بموضع في القيروان يعرف اليوم بمقبرة ﴿ الجناح الاخضر ﴾ وكان يسمى في القديم بمقبرة قريش انتسابا لتلك الفتاة القرشية [٢] . وما زال ضريحها يشاهد بهذه المقبرة حتى الآن وهو محل الاجلال والاحترام من زوار هذا المدفن العتيق :

فسقاك الاله وابل غيث يا ضريحا يضم مجدا أثيلا

صنديدة بربرية : الكاهنة

على أثر امتلاك العرب لافريقية ظهر بين الشعوب البربرية زعماء ادعوا الرئاسة وشاغبوا المسلمين في ملكهم الجديد وقد انضم الى هؤلاء الدعاة بقايا الروم الافريقيين . فاول من نازع سلطة العرب كان الدعي (كسيلة) الذي اظهر الاسلام في باديء

---

(١) مكان قريب من القيروان استشهد فيه كثير من اعيان الفاتحين منهم الصحابي الكبير أبو زمعة البلوي رضي الله عنه

(٢) معالم الايمان ج ١ ص ٧٢ — ورحلة العبدري (قلم)

امره ثم نكث عهده وكان سببا في استشهاد عقبة واصحابه الطيبين رضوان الله عنهم . ثم عاد العرب في قوة واستأنفوا الفتح من جديد .

ولم تلبث هذه الحال الّا قليلا حتى قام برابرة المغـرب الاوسط وافريقية في عدة عظيمة تحت قيادة امرأة كانت متزوجة باحد الرؤساء فلما مات بعلها تسلطت على طوائف من الاهليين لما أوتيته من الشجاعة والدهاء والتدبير ولا سيما التظاهر بمعرفة المغيبات والاطلاع على اسرار النفوس . ولهذا السبب لقبها العرب ﴿ بالكاهنة البربرية ﴾ .

وهي : دهيا بنت تابتت بن تيفان . نشأت في قبيلة جراوة من زناتة المخيمة بجبال أوراس . وكان لها ولدان ورثا الرئاسة عن سلفهما وتربيا في حجرها فاستبدت بهما على القوم ونظمت جندا أعدته لمقاومة العرب – وذلك في حدود سنة ٧٥ من الهجرة .

فلما غزا حسان بن النعمان الغساني افريقية من قبل عبد الملك بن مروان واستولى على قرطاجنـة – ملجأ الروم – عزم على تبديد أمر البربر ، فخرج الى الكاهنة بجيوشه والتقى بها عند نهر مسكيانة على مرحلة من بغاية ومجانة ، وبعد بلاء عظيم انهزم حسان وقتل من العرب خلق كثير ، وأسرت الكاهنة جماعة من سراتهم منهم خالد بن يزيد القيسي – وقيل العبسي – وكان شجاعا مذكورا . ففارق حسان افريقية حتى خرج من حد قابس وترك الامر للبربر . وكتب الى أمير المؤمنين بخبر الكاهنة فاجابه عبد الملك : « انه بلغني أمرك وما لقيت ولقي المسلمون فحيث ما وجدك كتابي هذا أقم ولا تبرح حتى يأتيك امري ، والسلام » فورد عليه الكتاب وهو نازل بالموضع المعروف اليوم بقصور حسان . واقام العرب بطرابلس خمس سنوات ينتظرون المدد . وفي تلك المدة ملكت الكاهنة افريقية كلها . وكانت حين أسرت اصحاب

حسان أطلقتهم جميعا ما عدا خالد بن يزيد فانها تبنته بالرضاع — وكانت عادة جارية عند العرب في جاليتهم وعند البربر أيضا — وأخذت عهدا على أسيرهـا أن يكون أخا صادقا لابنيها .

ثم ان حسان بعث سرا الى خالد وهو في اسره يستخبره عن الكاهنـة وقوتها واستعدادها فكتب خالد اليه الجواب ودسه في رغيف انضجه لذلك ، ثم دفعه الى الرسول ليخفي الكتاب وليظن من رأى الرغيف انه زاد للرجل . فلم يغب الرسول حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها وهي تقول : — يا لقومي ذهب ملككم ، ودنا هلاككم فيما يأكل الناس ! وكررت ذلك مرات ، فلما علمت الكاهنة بما عزم عليه حسان جمعت رجالها من بربر وروم وأفارقة وقالت لهم :

— يا قوم ، ان العرب يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضـة ، ونحن انما نريد المزارع والمراعي . ولا أرى لكم نجاة الّا بتدمير البلاد وطمس معالمها . »

فاندفع البربر لهذه الاشارة يقطعون الاشجار ويخربـون الديـار ويدمرون القرى والمداشر حتى أصبح عمرانها أثرا بعد عين . وكانت افريقية فيما قيل ظـلا واحدا ممتدا من طرابلس الى بونة وعمارة متصلة ، فاخرب ذلك كله طمعا في تثبيط همة العرب الفاتحين ، وهيهات ان يصدهم ذلك لان غايتهم كانت أعلى ومقصدهم أسنى !

ثم ان حسانا جهز عساكره وتقدم الى ملاقاة البربر ، فخرجت الكاهنة ناشرة شعورها وهي تقول : — يا بني انظروا ماذا ترون في السمآء ؟

قالوا — نرى شيئا من السحاب الاحمر

فقالت لهم — لا وحق الاهي ، انما هو رهج [1] خيل العرب أقبلت اليكم !

— ثم قالت لخالد بن يزيد : — انما اتخذتك ولدا لمثل هذا اليوم ، انما انا مقتولة ،

---

(١) الرهج هو السحاب الذي يكون بلا ماء

قال لها خالد : - فاذا كان الامر كذلك فارحلي وخلي البلاد ؟

قالت : - كيف أفر وانا ملكة ؟ والملوك لا تفر من الموت فأقلد قومي عارا الى آخر الدهر !

وتقدم حسان على أعنة الخيل والتقى الجمعان بفحص (ألجم) وقد اتخذت الكاهنة القصر الروماني هناك حصنا لرجالها . فتكافح الفريقان ، وتجالد الجيشان ، حتى ظنوا انه الفناء فانهزمت الكاهنة وقتلت عند بئر سماها الناس (بئر الكاهنة) [1]

ولقد أحسن العرب معاملة من كانوا مع الكاهنة واظهروا على عادتهم شهامة الكرام لان حسان لما امتلك البلاد أمن البربر واشترط عليهم ان يعطوه اثنى عشر الف فارس برسم الجهاد ، فاجابوه لذلك وأسلموا على يديه ، فعقد لولدي الكاهنة كل واحد منهما على ستة آلاف فارس من البربر واخرجهم مع العرب الى النواحي يفتحون افريقية والمغرب ويقاسمون الفاتحين الفيء والاراضي والشرف . وبذلك حسنت طاعتهم وخضعوا للدين القويم وصاروا له انصارا واعوانا (وتلك الايام نداولها بين الناس) .

اما الكاهنة فانها ماتت - كما ترى - موتة الاحرار بعد ان خلدت في تاريخ هذا القطر ذكر الابطال الذي لا ينقضي بمرور الدهور والاجيال ؛ فما أجمل ما انتهى به امر هذه الصنديدة التونسية وما أبهى وأبهر سلوك العرب مع الامم الخاضعة لسلطان الديانة الاسلامية .

---

(١) معالم الايمان ج ١ ص ٥٦ وما بعده - وتاريخ ابن خلدون ج ١ ص ١٣٥

احترام حقوق المرأة

كم دوى في آذاننا رنين الانتقاد على الشريعة الاسلامية السمحاء بانها شريعة تسلب المرأة حقوقها وتجعلها مستبضعا بين يدي الرجل او مستودعا لكامل سلطته واستبداده المطلق دون ان تخولها بازائه ادنى حق . وقد اخطأ هؤلاء الناقدون خطأ فاضحا لا يغتفره لهم العلم والتاريخ اذ لا حامل لهم عليه الّا احد أمرين : اما التعصب الاعمى أو الجهل الممقوت .

ولو كان غرضهم اصابة الحق ما اغمضوا ابصارهم عن الايات البينات المشحون بها الكتاب الحكيم النازلة في حقهن . فقد قال تعلى « فامساك بمعروف او تسريح باحسان » وقال : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقال : « وعاشروهن بالمعروف » وغير ذلك من الآيات الكريمة التي يضيق دون استيعابها نطاق هذه العجالة . ومن اراد ان يستكمل فليطالع دواوين الحديث والفقه ، وفي ذلك بلاغ .

ونحن نكتفي عن ذلك كله بذكر القضية الآتية التي قصها علينا التاريخ التونسي ومنها تعلم ما للمرأة من الحرمة والحق في الاسلام . ولا دليل أثبت من القضاء والاحكام . فقد ذكر ابن الدباغ (١) ان الامير عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة ابن نافع ناط قضاء القيروان – سنة ١٣٢ – بجميل بن كريب المعافري . فكان هذا القاضي عادلا منصفا لا تأخذه في احكامه لومة لائم ؛ فبينما هو جالس ذات يوم للخصوم بجامع القيروان اذ حضر لديه تابع لامرأة الامير عبد الرحمن المتقدم وعرض عليه نيابة على مولاته قضية في زواجها وهي انها كانت اشترطت على الامير

---

(١) معالم الايمان ج ١ ص ١٦٧

عند البناء بها انه مهما تسرى عليها بغيرها كان أمرها بيدها ، وبعد ان اثبت التابع وكالته عند القاضي أخذ استدعاء للامير فامتثل عبد الرحمن لذلك وشخص بين يدي القاضي مع التابع كسائر الخصوم . ولما سأله على القضية أقر بالتسري واعترف بالشرط الواقع بينه وبين زوجته . فاشهد عليه القاضي عندئذ من كان حاضرا من من الشهود ثم التفت للتابع وأبلغه ان أمر الاميرة بيدها ان شاءت أقامت وان شاءت طلقت نفسها . فرفع الامير عبد الرحمن يده الى السماء وقال : « الحمد لله الذي اراني قاضيا يحكم في بالحق ! »

غير ان الشيخ ابن الدباغ الناقل للحكاية لم يعلمنا فيما رواه اذا كانت زوجة الامير خيرت البقاء او الطلاق [1]

ومهما يكن فهذه الحكاية البسيطة الواردة عفوا في معرض ترجمة القاضي أبي كريب المعافري من البراهين الدالة على مراعاة الشريعة الاسلامية لحقوق المرأة وتخويلها اياها حرية معقولة مؤسسة على احترام الاخلاق :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

***

(١) أقول لم تزل العادة جارية من ذلك العهد الى الآن بالقيروان بتبرع الزوج لزوجته عند انعقاد النكاح في كونه راضيا لها بعدم التزوج عليها بامرأة ثانية . وقد ينص عادة في نفس رسم الصداق بأن الزوجة لها الحق في تطليق نفسها متى تزوج عليها بغيرها وهو ما يعرف في القطر التونسي بالطريقة القيروانية في الزواج . ولذا قلما وجد في القيروان من تعددت ازواجه .

طبق الورد

جلس روح بن حاتم المهلبي امير افريقية[1] يوما في منظرة له بقصره في القيروان ومعه زوجته ، فدخل اليه الخادم بطبق فيه ورد أحمر وأبيض في غير أوانه ، فاستظرفه روح وسأل الخادم عن امره ، فاخبره ان رجلا اتى به هدية فأمر روح ان يملا له الطبق دراهم .

فقالت له زوجته : — ما انصفته !

فقال : — ولمَ ؟

قالت : — انه أتى بلونين أحمر وأبيض فلونه انت له ايضا .

فأمر روح ان يخلط الطبق دراهم ودنانير فخلط ودفع له .

---

(١) من الحلة السيراء لابن الابار طبع مونيخ ١٨٦٦ — وحلبة الكميت طبع مصر سنة ١٢٩٩ ص ٢٣٦

الدور الاغلبي

تمهيد — لا يخفى أن اول أسرة حكمت البلاد الافريقية بنوع من الاستقلال الداخلي بعد الفتح الاسلامي هي : (دولة الاغالبة) ورأس هـذه الاسرة ومؤسسها هو ابراهيم بن الاغلب التميمي .

نشأ ابراهيم بمصر وتلقى العلوم الاسلامية من الراوية الشهير والمجتهد الكبير الليث بن سعد ولازمه مدة طويلة حتى اترع بالعرفان ثم ازمع على السفر الى افريقية مع ابيه في احدى النجدات العربية . فلما آن وقت الرحيل أهدى له شيخه جارية كان رباها بين حضآئنه اسمها (جلاجل) .

وفد ابراهيم على افريقية وامتاز من بين اقرانه باصالة الرأي والشجاعة والبأس فلم يلبث ان انتخبه الجند المضري لرئاستهم . ومن حسن سياسة هارون الرشيد ان ولاه إمارة المغرب لما بلغه عنه من اللياقة وحسن التدبير . وقد خوله حقوقا ممتازة لم ينلها واحد من الولاة قبله . ولا غرو فان اختيار الرشيد قد صادف محلـه اذ لم يكن بين رجالات افريقية أقدر من ابن الاغلب على القيام باعبآء الامارة لا سيما في تلك الظروف الحرجة .

تولى ابراهيم امارة المغرب – سنة ١٨٤ – وبعد ان مهد راحة البلاد وأمن سبلها بجيش منظم ابتنى قرب القيروان مدينة سماها (العباسية) تخليدا لذكر ساداته من بني العباس واتخذ بوسط المدينة المحدثة قصرا لنفسه لقبه (بالرصافة) محاكاة لمعالم العاصمة البغدادية ومجاراة للذوق العربي .

شهامة عربية

في قصر الرصافة هذا ولد لابراهيم من زوجه (جلاجل) ولد سماه (زيادة الله) وهو اول من عرف بهذا الاسم . وبعد مدة توفي ابراهيم الاكبر في عزه ونخوة ملكه وقد ترك لبنيه من بعده امارة شاسعة الاطراف دافقة الخيرات .

فلم تمض برهة من الزمن حتى اعتلى زيادة الله عرش الامارة الافريقية . ولاول عهده بالولاية ثار عليه زعيم من رؤساء الجيش يدعى عامر بن نافع فانه تمكن من استمالة الجند المضري اليه وقصد افتكاك السلطة من بني الاغلب فبادر زيادة الله لقمع هذا الثائر .

وفي اثناء المقاومة بلغ زيادة الله ان أخت عامر بن نافع حلفت ان ملك اخوها القيروان تلزم (جلاجل) بطبخ قدر من الفول لها ، وكان من القدر ان ظفر زيادة الله بعامر بن نافع وقمعه عن مقصده – سنة ٢١٨ – فلما عاد منصورا الى القيروان أمر بعض خدمه باحضار قدر من الفول المطبوخ وارسله الى اخت عامر وأسر الى الرسول ان يبلغ اخت عامر على لسان امه هذه الكلمات :

– ان مولاتي تقرئك السلام وتبلغك هذه القدر لتكوني بارة في يمينك ! »

فارتعدت اخت عامر لذلك وكان من جوابها :

– قولي لمولاتك ان لها الامر اليوم فلتفعل ما تريد ! »

فلما بلغ جلاجل ما فعله ابنها زيادة الله دعته اليها في الحين وقالت له :

– لقد سأني يا بني ما فعلته مع اخت عامر ، لان اظهار العظمة عند المقدرة ليس من شيم الكرام . وكان عليك أن تغض الطرف وتفعل خلاف ما فعلت ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان من كظم غيظا يقدر على انفاذه ملاه الله أمنا وايمانا يوم القيامة » .

فامتثل زيادة الله لقولها وقال :

– صدقت يا اماه ! وسأفعل معها ما يسرك ويرضي الله والناس أجمعين .

ثم ان (جلاجل) أرسلت لاخت عامر بفرو ثمين ومال واشياء أخرى نفيسة مما سرها وأزال عنها كل روع [1]

فلله تلك النفس الزكية التي تعفو عند المقدرة عن مزال غيرها وعثراته ولو كبرت ، عملا بقول الحق جل وعلا : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

ولا جرم أن ما اظهرته (جلاجل) من الاحساس الشريف والعاطفة الشماء انما هو ثمرة التربية العربية التي تغذتها في شبابها من مولاها الليث بن سعد ونقلتها من زوجها ابراهيم بن الاغلب ، وكيف لا يجدر بابناء لهم امهات صالحات مثل (جلاجل) أن يفتخروا بهن ؟

---

(١) مقتطف من تاريخ النويري الكبير المسمى « نهاية الارب » (خط)

عدوة القرويين

بينما كان بنو الاغلب يواصلون السعي في مد سلطانهم على افريقية الشمالية وجزائر البحر المتوسط اذ ظهرت بالمغرب الاقصى دولة عربية توصلت لفصل تلك البلاد عن ملك الاغالبة واستقلت بها وهم : (الادارسة العلويون) . ولما توطد الامر لافراد هذه الاسرة رغبوا في جلب بعض البيوتات العربية تعزيزا لجانبهم واستئناسا بقربهم اذ كان الادراسة يرون أنفسهم كالغرباء المنقطعين بين الامم البربرية المخيمة بتلك الاصقاع . ففي ايام ادريس الاصغر قصد المغرب وفود من عرب افريقية والاندلس نازعين اليه ، وملتفين عليه ، فاجتمع لديه نحو خمسمائة بيت من قيس والازد ومذحج ويحصب والصدف وغيرهم . فسر ادريس بوفادتهم وادنى منزلتهم وجعلهم بطانة دون البربر . ولم تزل الوفود تتوارد على هذا الامير حتى ضاقت مدينة (وليلي) – وكانت عاصمته – فاراد أن يتخذ مدينة لسكناه ونزول خاصته ورجال عصبيته . فاختط مدينة فاس – سنة ١٩٢ – وجعلها قسمين يفصل بينهما نهر سبو . وسمى القسم الاول (عدوة القرويين) لنزول العرب الوافدين من القيروان بها وكانوا زهاء ثلاثمائة بيت .

ودعا القسم الثاني عدوة الاندلس . وانتقل ادريس لسكنى عدوة القرويين بعد ان حاطها بسور واتخذ بها الدور والحمامات والاسواق .

ام البنين الفهرية

من بين العرب النازحين الى المغرب الاقصى مع تلك الوفود امرأة صالحة من اهل القيروان تسمى ﴿ فاطمة بنت محمد الفهري ﴾ وتكنى أم البنين ، نزلت في أهل

بيتها بعدوة القرويين على عهد ادريس الثاني ، وبعد مدة مات زوجها واخوتها فورثت منهم مالا جسيما وكان من الحلال الطيب ، فتعلقت همتها الشماء بصرفه في اعمال البر وعزمت على بناء مسجد تجد ثوابه عند الله في الآخرة (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) فاشترت ارضا بيضاء قرب منزلها بالقرويين كان أقطعها الامير الى رجل من هوارة وشرعت في حفر أساس المسجد وبناء جدرانه بالطابية والكذان . وكانت الطريقة التي سلكتها في بنائه انها التزمت أن لا تأخذ التراب وغيره من مادة البناء الا من نفس الارض التي اشترتها دون غيرها مما هو خارج عن مساحتها فحفرت كهوفا في اعماقها وجعلت تستخرج الرمل الاصفر الجيد والحجر الكذان والجص وتبني به ، تحريا منها ان لا تدخل شبهة في تشييد المسجد ، ثم انها انبطت بصحنه بئرا حلوة للبناء والشراب [1] . فجاء المسجد محكم البناء فسيح الارجاء ، ذا رونق وبهاء ؛ ولم تزل فاطمة القيروانية صائمة من يوم شرع في بنائه الى ان تم ، وصلت فيه شكرا لله تعلى وامتنانا لفضله الكريم الذي وفقها لاعمال الخير — وذلك يوم السبت فاتح رمضان المعظم من سنة ٢٤٥ — قال ابن خلدون [2] : « فكأنما نبهت عزائم الملوك من بعدها » ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقد عادت بركة نيتها الصالحة وورعها على هذا المسجد حتى كان منه ما ترى اليوم اذ هو (جامع القرويين) الشهير ، والمعهد الديني المعتبر ، أكبر كلية عربية في البلاد المراكشية .

وقال ابن ابي زرع [3] : هما أختان فاطمة أم البنين ومريم ام القاسم بنتا محمد

---

(١) الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى — ج ١ ص ٧٦

(٢) تاريخ ابن خلدون ، طبع بولاق ج ٤ ص ١٥

(٣) روض القرطاس ، طبع فاس سنة ١٣٠٥ ص ٣٣

الفهري القيرواني . بنت فاطمة (جامع القرويين) المذكور . وبنت مريم (جامع الاندلس) من مال حلال طيب موروث عن ابيهما واخوتهما . فلم يزل المسجدان على ما بنتهما الاختان بقية ايام الادارسة حتى تقضت ايامهم . »

اللهم انك اذا وفقت أمة للرقي وآذنت لها بالسعادة ايقظت في افرادها — رجالا ونساء — وجداناً شريفاً وشعوراً عالياً يدفعهم للقيام بصالح الاعمال .

ان هذه التقوى وهذا الزهد ، وان كانا أليق بمثل الاختين القيروانيتين وأجدر بمن كان حيا في العصر الاسلامي الاول ، الّا أن في عملهما المبرور عظة وعبرة لو تذكرها الخلف . نظر الله وجههما ، وشكر صالح سعيهما ؛ بمنه وكرمه .

فقيهتا القيروان

الاولى هي ﴿ أسمآء بنت أسد بن الفرات ﴾ عالم افريقية وقاضيها وصاحب الامامين أبي حنيفة النعمان ومالك ابن أنس .

نشأت أسمآء بين يدي ابيها — ولم يكن له سواها — فاحسن تهذيبها وثقف ذهنها علماً وحكمة ، وكانت تحضر مجالسه العلمية في داره وتشارك في السؤال والمناظرة حتى اشتهرت بالفضيلة ورواية الحديث والفقه على رأي اهل العراق اصحاب أبي حنيفة .

ولما تقلد أسد امارة الجيش المعد لفتح جزيرة صقلية على عهد زيادة الله الاول ، وهرع الناس لتشييعه وقد نشرت البنود والالوية وضربت الطبول والابواق خرجت أسمآء لوداع ابيها واوصلته الى سوسة حتى ركبت الاجناد الاساطيل العربية وبقيت معه الى ان غادرت السفن المرسى باسم الله مجراها ومرساها .

واتاح الله للقاضي الامير اسد من النصر العزيز والفتح المبين في قلاع تلك الجزيرة وحصونها ما خلد له في التاريخ أعظم فخر وأشرف ذكر . واستشهد أسد - سنة ٢١٣ - وهو محاصر لمدينة سرقوسة عاصمة الروم بصقلية واللواء بيده اليسرى والسيف مسلول باليمنى وهو يتلو قول الله : ﴿ اذا جآء نصر الله ﴾ [١]

وبعد وفاة اسد تزوجت اسمآء باحد تلاميذ ابيها وهو محمد بن ابي الجواد الذي خلف استاذه في خطة القضاء وتولى رئاسة المشيخة الحنفية بالبلاد الافريقية - سنة ٢٢٥ - ثم تخلى عن القضاء ولحقته محنة من خليفته فانه اتهمه بمال الودائع وسجنه . وبينما ابن الجواد في محبسه اذ جآءت زوجه اسمآء للقاضي الجديد وقالت له :

- انا أهب هذا المال المزعوم يقضيه عن نفسه .

فقال لها القاضي : ان أقر ان ذلك هو المال أو بدل منه أطلقه . فامتنع ابن ابي الجواد من الاعتراف وأبى القاضي اطلاقه . ثم بعد حين عزل ذلك القاضي وعاد زوج اسمآء لمنصبه الاول ولم يؤاخذ سالفه بما فعل معه منة منه وتكرماً [٢]

ولم تزل ﴿ اسمآء الاسدية ﴾ معظمة معززة عند الخاص والعام من بيئة عصرها الى ان توفيت في حدود سنة ٢٥٠ . فرحمها الله ورضي عنها وعن أبيها .

والثانية هي ﴿ خديجة بنت الامام سحنون بن سعيد التنوخي ﴾ حامل لواء مذهب مالك بالمغرب . قال عياض [٣] : كانت خديجة عاقلة عالمة ذات صيانة ودين »

---

(١) كتاب الوافي بالوفيات للصفدي (خط)

(٢) ترتيب المدارك لعياض ج اول (خط)

(٣) الكتاب المذكور

وكان ابوها يحبها حبا شديدا ويستشيرها في مهمات أموره حتى انه لما عرض عليه القضاء لم يقبله الّا بعد أخذ رأيها [١]. وكذا كان يفعل اخوها محمد بعد وفاة أبيهما .

وعلاوة على اصابة رأيها اتصفت خديجة بالعلم كما ذكر عياض ، وطبيعة انها استمدت معارفها من والدها الحبر . وقد كان نساء زمانها يستفتينها في مسائل الدين ويقتدين بها في معضلات الامور لما منحها الخالق جل ثناؤه من كمال العقل والمدارك العالية .

قال ابو داود العطار[٢] : أرسلني ابو جعفر احمد بن لبدة ابن اخي سحنون لاخطب له خديجة من أبيها وكانت من أحسن النساء واعقلهن ، فذكرت ذلك لسحنون فقال لي : هممت بذلك ، وسكت . ثم اتاه ابنه محمد فاستشاره ولم يجب الخطبة .

وتوفي سحنون فارسلني ابن لبدة الى محمد فذكرت ذلك له فقال : كيف أتجاسر على ما لم يصنعه أبي ؟ فسكت عنه حتى توفي محمد ، فارسلني اليها فقالت لي:

– ما لم يفعل أبي وأخي أنا أصنعه ؟ لا أفعل ابداً .

لعمرك انما منع خديجة من الزواج بقريبها العالم الحياء والحشمة التي فطرت عليها وكأنها ارادت احترام نية والدها واخيها ولو ادى ذلك الانقباض الى تضحية شبابها والاقتصار على اشغال حياتها بما يرضي الرب من صلاة وعبادة ونصيحة وافادة حتى ماتت وهي بكر – في حدود سنة ٢٧٠ – ودفنت حذو ابيها واخيها بمقبرتهم المشهورة بهم خارج مدينة القيروان .

---

(١) معالم الائمان ج ٢ ص ٥٤

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض ج اول (خط)

مهريـة الاغلبية

هي الاميرة مهرية بنت الحسن بن غلبون التميمي ، نشأت أواسط القرن الثالث للهجرة بمدينة رقادة قرب القيروان في عز ورفـاهية اذ كانت من الاسـرة الاغلبية الحاكمة لافريقية وتربت في تلك البيئة الراقية وتلقت العلوم مع تربيهـا حتى اتقنت العربية ونبغت في القريض ونبعت قريحتها الشعرية بما يكنه صدرها من الخواطر اللطيفة والعواطف الرقيقة . واشتهرت في زمانها بـالادب الغض ووصف نظمها بالجودة .

ومن الاسف ان لم يصلنا من شعرها سوى قطعة أنشدتها في رثآء أخيها الاديب أبي عقال وقد مات غريباً قصيا عن الوطن – سنة ٢٩١ – قالت [1] :

ليت شعري ما الذي عانيته ؟ بعد طول الصوم مع نفي الوسن
مع غروب النفس عن اوطانها والتخـلي عن حبيب وسكن
يا شقيق ليس في وجد بـه غلة تمنعني من أن أجن
وكما تبلى وجوه في الثرى فكذا يبلى عليهن الحـزن

ومن الطرف التي يناسب ذكرها في هذا المقام – والشيء بالشيء يذكر – ما اتفق لابي عقال شقيق شاعرتنا . فقد كان أبو عقال هذا في صغره ماجنا خليعـا على عادة الشبان في كل زمان ومكان ؛ فعن له مرة أن يحضر عرسا لبعض أقاربه من بني الاغلب ، فتزيا بشكل امرأة ليخفي جنسه ودخل على تلك الصـورة بين النسآء ولم

---

(١) معالم الأئمان ج ٢ ص ١٤٤ – وبساط العقيق للمؤلف طبع تونس سنة ١٣٣٠ ص ٣٦

يتفطن اليه أحد ، لكن بعد ساعة فقدت احدى المدعوات درة ذات قيمة عالية فأمرت صاحبة العرس بالباب فاغلق على من بالدار من النسآء وجعلت تفتش كل امرأة تريد الخروج . واذ ذاك أخذ ابو عقال من الجزع والخوف ما أخذ .

قال ابو عقال : فتبت الى الله عز وجل على فعلي . وتمادوا في التفتيش حتى لم يبق بالمنزل الّا انا وامرأة واحدة وهي ترادفني وتريد أن تكون ورآئي وأنا أدفعها اليهن الى أن أخذوها فوجدوا الدرة معها . فقالوا لي : انصرفي يا هذه المرأة. فخرجت وأنا ارتعد خوفاً وخجلا فأزلت الخف والمعجر والرداء التي كانت علي من زي النسآء وتماديت على التوبة . »

تربية الجواري

روى لسان الدين بن الخطيب[1] ان ابراهيم الثاني من بني الاغلب دخل يوماً على أمه ﴿ اتراب ﴾ فقامت اليه ورحبت به ودعت بطعام وشراب فتناول منه وتحادثا فلما رأته قد انبسط قالت له :

– ان عندي جاريتين أدبتهما لك وادخرتهما لمسرتك وقد طال عهدك بالانس ، وهما تحسنان القرآءة بالالحان فهل لك ان أحضرهما للقرآءة بين يديك ؟

فقال : أفعلي

فأمرت باحضارهما فحضرتا وقرأتا أحسن قرآءة . فقالت له امه :

– فهل ترى ان تنشدك الشعر ؟

قال : نعم – فأمرتهما فأنشدتا من رقيق الشعر أحسن ما يسمع

---

(١) كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب . طبع بلرم سنة ١٩١٠ م ص ١٦

فقالت له : هل لك في الغناء ؟

قال : نعم – فأمرتهما فغنتا ارتجالا باجمل صوت

ثم قالت : فهل لك أن تغنيا بالعود ؟

قال : نعم – فغنتا بالعود والطنبور أبدع غناء »

ومن هذه الحكاية يستفاد ما كانت عليه حالة الجواري بالقطر الافريقي من الادب والتهذيب وهو أثر من آثار الرقي الاجتماعي ودليل على استعداد الامة لتأهيل نساء عارفات أديبات ولو كن من الجواري فضلا عن بنات الامرآء والوزراء والاعيان والاغنياء .

حرارة الغرام

ومن لطيف ما نقله الصفدي[1] عن الامير ابراهيم بن الاغلب المذكور . وهو يمثل لك حسن دياجته وكرم اخلاقه . قال :

– خرج ابراهيم يوماً للنزهة بجهة رقادة فاعترضه رجل وقال : « أبقى الله الامير ، أنا رجل عشقت جارية عشقاً قلما عشقه أحد ، فرغبت الى مولاها في بيعها فقال لا أنقصها من خمسين ديناراً ، فنظرت في جميع ما املكه فإذا هو ثلاثون ديناراً وبقي علي عشرون ديناراً ، فان رأى الامير ابقاه الله أن ينظر في امري ويتفضل علي . »

فدعا ابراهيم سيد الجارية وأمر له بخمسين ديناراً وللرجل العاشق بخمسين ديناراً أخرى . فسمع بذلك انسان آخر فاعترضه وقال :

---

(٢) الوافي بالوفيات للصفدي (خط)

— ايها الامير انني عاشق !

فقال : فما الذي تجد في نفسك ؟

قال : حرارة عظيمة .

فقال الامير : خذوه فاغسلوه في ماء بالثلج حتى يبرد ما في قلبه . ففعلوا ذلك به ، ثم أتوا به وهو يرتعش ، فقال له :

— ما فعلت تلك الحرارة ؟

— قال : والله يا مولاي مكانها برد شديد !

فضحك منه وأمر له بعشرين ديناراً .

خفايا القضايا

ولندرج هنا نادرة أخرى لابراهيم الثاني لها مساس بموضوعنا تنبيك عن عدل هذا الامير الجليل وعن فطنته العجيبة في اظهار خفايا القضايا ،

حكى عز الدين ابن الاثير في تاريخه : (١)

« ان رجلا تاجرا من اهل القيروان كانت له امراة جميلة اتصفت بالصلاح والعفاف ، فاتصل خبرها بوزير الامير ابراهيم ، فارسل اليها فلم تجبه ، فاشتد غرامه بها ، فشكا حاله الى عجوز كانت تغشاه ، وكانت ايضاً لها عند الامير منزلة ولها عند والدته حظوة كبيرة ، وهي موصوفة عندهم بالصلاح يتبركون بها ويسألونها الدعاء ، فقالت العجوز للوزير : — أنا أتلطف بها وأجمع بينكما — وراحت الى بيت المرأة فقرعت الباب وقالت : — قد أصاب ثوبي نجاسة أريد تطهيرها — فخرجت

---

(١) تاريخ الكامل ج ٧ ص ١١٣

اليها المرأة ولاقتها بكل ترحيب وادخلتها الدار وطهرت ثوبها ، وقامت العجوز تصلي وعرضت المرأة عليها بعد ذلك الطعام فقالت : – اني صائمة ولا بد من التردد اليك – ثم صارت تغشاها من حين الى آخر ، ودخلت عليها يوماً وقالت لها : – عندي بنت يتيمة أريد أن أحملها الى زوجها فان خف عليك إعارة حليك أجملها بـه ، فعلت – فاحضرت المرأة جميع حليها – وكان شيئاً ثميناً – وسلمته اليهـا ، فأخذته العجـوز وانصرفت وغابت اياماً وجاءت ، فسألتها عن حليها فقالت : – هو عند الوزير ، عبرت عليه اليوم عند قدومي اليك والحلي معي فأخذه مني وقـال لي : لا أسلمه الّا اليك فتنازعتا أشد نزاعة وخرجت العجوز ، وجاء التاجر زوج المـرأة الى منزله فاخبرته الخبر ،

خرج الرجل حالا الى (رقادة) حيث قصر الامير واخبره بالقصة من أولها الى آخرها فلم يجبه الامير ابراهيم شيئاً ودخل الى والدته وسألها عن العجوز ، فقالت : هي بالقصر تدعو ك بطول البقاء ، فامر باحضارها للتبرك بها ، فاشخصتها والدته بين يديه ، فلما رآها أكرمها وأقبل عليها بالحديث اللين وانبسط معها حتى أطمأنت ثم انه في عرض الحديث أخذ خاتماً من أصبعها وجعل يقلبه ويعبث به ، ثم انه غاب لحظة أحضر فيها أحد فتيانه النبهاء وقال له :

– انطلق الى بيت العجوز وقل لابنتها تسلم لك الحق الذي فيه الحـلي وصفته كذا وكذا وهذا الخاتم علامة منها .

فمضى الخادم ولم يبطء ان احضر الحق بما فيه ، فأخذه الامير ودخل على العجوز وسألها : – هل تعرفين هذا الحق ؟ – فلما رأته سقط في يدها وارتعـدت فرائسها وايقنت بالهلاك ، فأمر بها فقتلت حالا ودفنت بطرف الدار ، ثم ان الامير احضر التاجر وناوله الحق وأضاف اليه شيئا آخر من عنده وقال له :

- اما الوزير فان انتقمت منه الآن ينكشف الامر ويذيع الخبر ، وهو ما لا اريده لكن سأجعل له ذنبا آخذه به ، - فتركه مدة يسيرة وجعل له جرما كان سببا في هلاكه .

آثـار النسآء

أشرنا الى تربية الجواري بقصور الامراء من بني الاغلب وتعليمهن كل ما يليق بهن من الآداب والاخلاق الاسلامية ، وربما تبادر للفكر ان تلك التربية كانت منحصرة في اللواتي ينشأن بالبلاط الملوكي لغاية تأهيلهن أن يكن اميرات فاضلات وأمهات عارفات .

والحقيقة ان التربية على تلك الصورة الكاملة كانت شائعة ومتبعة بين طبقات الامة ، وأدل دليل عليه المصحف الشريف الموجود الآن في مكتبة جامع عقبة بالقيروان الذي خطته يراعة جارية قيروانية وقد احسنت في اتقان رسمه وتزويقه وتذهيبه وهذا نص توقيفه بخطها المشاهد بالورقة الاخيرة منه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هـذا ما حبست فضل مولاة أبي أيوب احمد بن محمد رحمه الله طلباً لثواب الله والدار الاخرة . رحم الله من قرأ فيها (اي الختمة) ودعا لصاحبتها . وكتبت فضل بخطها في المحرم سنة خمس وتسعين ومائتين »

على اننا لم نعلم من اخبار فضل هذه ولا من ترجمة مولاها شيئا .

ولا جرم أن امثال هذه الجارية المجهولة كن على العهد الاغلبي كثيرات ، غير انه لم تبلغ لنا آثارهن . وضرورة ان العلم والرقي والاداب اذا كانت منتشرة في قطر تكون عامة بين أفراد الشعب من الامير الى الغني والتاجر والمحترف .

اللهم لقد بعدت بيننا وبين السلف مسافة الخلف ، وانقطعت التربية الصحيحة من قصور الامراء ، ونشأ الجهل في دور العظماء ، وتنوسيت الاصول والتقاليد فآل أمرنا الى ما ترى – والله عليم بعاقبة الامور....

ولا غالب الّا الله

ولنختم أخبار نسآء الدور الاغلبي بذكر حادثة تمثل لك كيف غربت شمس الامارة الاغلبية

ظهر في أواخر القرن الثالث أبو عبد الله الصنعاني القائم بالدعوة الفاطمية في المغرب ، فبعد ما اجتمعت عليه قبائل البربر من كتامة ومصمودة وغيرهم تقدم يفتح باسم عبيد الله المهدي المدن الافريقية الواحدة عقب الاخرى الى أن بلغ احواز الاربس ؛ وهنالك التقى بجيش الامير ابي مضر زيادة الله الثالث فهزمه الهزيمة التي كانت سببا في انقراض الدولة الاغلبية – سنة ٢٩٦ – فلما اتصل خبر الانهزام بزيادة الله بمكانه من رقادة حذو القيروان أيقن أن الامر فسد فساد الا يقبل الاصلاح وان الدولة قد اذنت بالانقراض ، فتأهب لمفارقة الديار واشترى امتعة للسفر وأخذ في رفع الاموال ونفيس الخلع واصطفآء المجوهرات ، فاختار السلاح وحمل من يعز عليه من امهات اولاده وجواريه .

ثم انتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم وجعل في وسط كل واحد منهم ألف دينار خوفاً من لحاق احماله ، وقد ترك ضرورة كثيراً من اتباعه وقيانه ، فلما استكمل عدته خرج من رقادة ليلا بين أهله وحشمه ، فوقفت اليه حينئذ جاريته (سلاف) وقد أخذت العود على صدرها واندفعت تغنيه لتحمله على لحاقها به وتقول :

لم أنس يوم الرحيل موقفها وجفنها في دموعها غرق
وقولها والركاب سائرة تتركني سيدي وتنطلق
استودع الله ظبية جزعت للبين والبين فيه لي حرق

ولم تكد تكمل (سلاف) الابيات حتى خنقت العبرة زيادة الله وتتابعت دموعه فأمر بحط حمل مال عن بغل وحملها عليه . وما أذن المؤذن بالعشآء الاخيرة حتى خرج آخر بني الاغلب من رقادة قاصداً المشرق وأتبعه الناس قوماً بعد قوم يهتدون بالمشاعل [1].

ذكرني حال زيادة الله هذا خبر أبي عبد الله بن الاحمر آخر سلاطين الاندلس لما فارق بآل بيته دار غرناطة وقد وقف على ربوة معتبراً بزوال ملكه – والملك لله وحده – وأمه الاميرة عائشة بين يديه وهي تحاوره وتعاتبه :

– « بني ! أبك اليوم بكآء الثكلى سلطنة لم تحسن الدفاع عنها دفاع الرجال ! » نعم ربما سرى عن ابن الاحمر ، في تلك الساعة المرة وذلك الموقف الرهيب ، ما كان يتجلى لناظره من شعار دولة اجداده بني نصر الذاهبة « ولا غالب الّا الله » الذي كانوا يرسمونه بالقلم الكوفي العريض على جدران قصر (الحمرآء) خلال النقوش المزخرفة والهندام الجميل ، فاستيقظ من سنة الغرور وادرك ان الله غالبه ، وانه هو (يوتي الملك من يشآء ، وينزع الملك ممن يشآء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشآء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير)

---

(١) اعمال الاعلام لابن الخطيب ص ٤٤٦ نشرة المؤلف بكتاب تذكار ميكالي اماري بصقلية سنة ١٩١٠

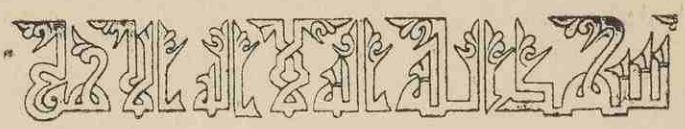

الدور العبيدي

تهذيب البربر

قدمنا لحضرات القارئين والقارئات فيما اسلفنا من هذا الكتاب حديث انقراض الامارة الاغلبية وقيام الدولة العبيدية مقامها ، وهي تسمى الفاطمية ايضا .

وسنتكلم هنا على اهتمام هذه الدولة وعنايتها بترقية وتمدين البربر حتى أهلتهم لاسمى الدرجات وفاقوا سوية العرب وافتكوا من ايديهم سلطان البلاد ، وتحكموا في رقابهم فانتظمت لهم الرئاسة واحكموا التدبير ، وروضوا الصعاب ، واسلسوا القياد ، ولعبوا أكبر دور في السياسة الاسلامية على ضفاف البحر المتوسط ؛ ولم يكن في وسعهم ان يتطاولوا باعناقهم الى هذه المرتبة السامية في الحياة الاجتماعية لو لم تتح لهم المقادير وجود العبيديين في اقطارهم وانضوآئهم تحت لوآئهم وتكافلهم على نصرتهم ، وتاييد دعوتهم ، والقيام بحجتهم ، وتظافرهم على تمليكهم ناصية المملكة الافريقية .

قام ملك العبيديين بالعصبية البربرية وكان حماتها ومنعتها فرق من بطون (كتامة) و (صنهاجة) وغيرهم فانصرفوا بكليتهم لمحو آثار السيادة الاغلبية من افريقية ثم أخذوا يتبارون في نشر عظمة دولتهم الجديدة بالممالك الشرقية وينازلونها

مملكة بعد اخرى حتى رفعوا الراية الخضراء الفاطمية على برقة ومصر والشام والحجاز واضعفوا شأن الخلافة العباسية حتى صيروها شبحاً ضئيلا يتوارى بين لبتي دجلة والفرات وكادوا يقضون عليها القضاء الاخير .

أي حكمة سامية نزلت على ادمغة البربر بعد ان حكمهم العبيديون حتى انقادت لهم الدنيا وأتوا بها صاغرة امام مواليهم ؟ وأي سياسة عجيبة ساس بها الخلفآء الفاطميون رعاياهم فبلغوا بهم أرقى ذروات المجد وبوأتهم اسمى مراتب الشرق ؟

وأي ثمن غال ابتاع به العبيديون اخلاص البربر حتى جعلوهم يتسابقون في خدمتهم ويتفانون في اعلاء كلمتهم ويتبارون في النصح لهم وصار الخلفآء يستكفون بهم في المهمات ، ويعتمدون عليهم في الملمات ، ويلقون اليهم باسنى المناصب ، ويقلدونهم الولايات والمراتب ؟..

لا بدع اذا قلنا ان من اكبر أسباب ذلك اعتناء العبيديين في اشاعة التعليم بين البربر — ولا سيما كتامة — وتهيئة قبيلتهم للرئاسة وقيادة الجيوش وادارة سياسة المملكة .

كان هؤلآء الخلفآء لا يوالون جهداً في تعليمهم وتثقيف اذهانهم بكل ما من شانه ان يهذب الاخلاق ويربي النفوس ويصلح الافكار ويرغب في الفضائل الاجتماعية ويزكي السجايا القومية حتى بلغوا في الامد القصير ما لم يبلغه غيرهم في الامد الطويل

وكان هؤلاء الخلفآء — لا سيما في صدر الدولة — يتعهدون رجال نصرتهم بأنفسهم ويلقون عليهم المواعظ ويذاكرونهم في كل ما يرونه نافعا لهم سوآء في السياسة والحرب ، أو في سيرة الرجل مع زوجه .

ومن هذا القبيل الدرس الثمين الذي القاه الامير معد الملقب بالمعز لدين الله رابع الخلفآء العبيديين على شيوخ الدولة وأكابرها ننقله عن الامام المقريزي . ومنه

تعرف مبلغ عناية هذه الدولة بتربية الهيئة الاجتماعية واهتمامها بجلائل وخافيات الامور خصوصا فيما يتعلق بمسألة تعدد الزوجات وخطرها على الاخلاق وسوء تأثيرها في الامم وافسادها لعزائم الرجال .

حسب الواحد الواحدة

قال العلامة المقريزي رحمه الله : (١)

« ولما كان في بعض الايام استدعى المعز لدين الله في يوم شات عدة من شيوخ كتامة فدخلوا عليه في مجلس بقصر المنصورية – حذو القيروان – قد فرش باللبود وحوله كسآء وعليه جبة صوف وحوله ابواب مفتحة تفضي الى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب ، فقال :

– يا اخواننا ، أصبحت اليوم في مثل هذا الشتآء والبرد فقلت لام الامراء (٢) – وانها الآن بحيث تسمع كلامي – أترى اخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب في المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والغناء كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت ان انفذ اليكم فاحضرتكم لتشاهدوا حالي اذا

---

(١) الخطط المقريزية ج ٢ : ٣٥٢ طبع بولاق . وك « انعاظ الحنفآء باخبار الخلفاء » للمقريزي ايضا طبع القدس الشريف بعناية المستعرب هوقو بونز سنة ١٩٠٨ ص ٦٠

(٢) أم الامرآء هي زوج المعز لدين الله واسمها ﴿ السيدة العزيزة ﴾ وهي أم سائر ابنائه – منهم الخليفة ابو منصور نزار الملقب بالعزيز بالله المولود بالمهدية سنة ٣٤٤ المتوفى بمصر سنة ٣٨٦ .

خلوت دونكم واحتجبت عنكم ، واني لا افضلكم في احوالكم الا بما لا بد لي منه من دنياكم وبما خصني الله به من إمامتكم ؛ واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطي ، واني لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا الّا بما يصون أرواحكم ، ويعمر بلادكم ، ويذل اعداءكم ، ويقمع اضدادكم . فاعملوا - يا شيوخ - في خلوتكم مثل ما افعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عليكم وينقلها الى غيركم ، وتحننوا على من ورائكم ممن لا يصل الي كتحنني عليكم ليتصل في الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل ؛ واقبلوا بعدها على نسائكم والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثر منهن ، والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا ابدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ، واعلموا انكم اذا لزمتم ما أنا آمركم به رجوت ان يقرب الله علينا امر المشرق كما قرب امر المغرب ، انهضوا رحمكم الله ونصركم » .

فانظر - يا رعاك الله - الى هذه الكلمات الجامعة للحكمة والسياسة ، الدالة على تواضع كبار الامراء العاملين على امتلاك القلوب ، الطامحين الى جلائل الاعمال ، الخبيرين باسرار النفس وقود النفوس .

ومن هنا ايضا تعلم سعة نظر هذا السياسي الخطير في المسائل الاجتماعية وبعد غوره في ادراك اعضل المباحث الفلسفية وكيف يفهمها ويشرحها للناس !

وهذه الفقرة مع كونها موعظة وتفكهة للقراء فانها اعلق من الوجهة النسائية بمباحث كتابنا هذا .

الدور الصنهاجي

تمهيد — اقتضت سنة العمران ان الامم لا تنال ثمرات كدها ومجهودها من الرقي الاجتماعي بقسميه المادي والادبي الّا بعد مضي أجيال من عهد البداية ، شان العوامل الطبيعية في الكائنات ، فان النبات لا ينضج حين زرعه دفعة واحدة بل لا بد له من اجتياز ادوار الاختمار والتنبت والصلاح والاثمار ثم الانضاج . كذلك الامم فانها لا تدرك نتائج عملها في طور البداية ، ولا مناص لها من قطع الزمن الكافي لارساخ الملكات الملائمة لهوية العمل في نفوس الآحاد وسريان اللقاح الاخلاقي المغذي لتلك الملكات من الافراد الى المجموع ، وحينئذ تبدو ثمرات تلك المجهودات دانية القطوف فتنال منها الامم قسطها من السعادة والفوز والعظمة .

تداولت على افريقية من الفتح الاسلامي دول شتى وكانت — بشهادة التاريخ — ذات عناية بترقية البلاد وتوسيع نطاق العمران ، الا أن نتائج اعمالها لم تبلغ مرتبة الاخصاب الّا بعد قطع مسافة اربعة قرون أعني الى عهد الامراء الصنهاجيين ، فلقد احرز الشعب التونسي في مدتهم على تمدن اسلامي باذخ وحضارة عربية فائقة لم يحلم هذا القطر بما دونها ولو في العصر الروماني المزعوم رسوخه في التمدين الاستعماري .

اجل ! ارتقت البلاد الافريقية وبلغت أوج السعادة على عهد الصنهاجيين

وادركت منتهى العز الشامخ والبذخ الاقعس، ولا غرو ان ينبغ في ذلك العصر أفذاذ قادرون يكون لهم القدح المعلى في كل علم وفن يشيدون معالم العمران على أسس العلم الصحيح والمدنية الحقة . فقد انتشرت على عهدهم الصناعات ، واحييت الارض الموات ، وانشئت الجنات المعروشات ، ودرت الخيرات ، وكثرت الارزاق ، وتعددت وسائل المكاسب ، فعمت الثروة ، وتبسطت الرفاهية ، وفشى التهذيب ، والتأم الجمع ، وانتظم الشمل . فاصبحت افريقية محطاً لرحال الاعمال ، وكعبة للقصاد من طلاب الآمال . ناهيك من كعبة مساكنها القصور وارضها الجنان وسكانها الحور ينمقها الزخرف ويحللها الذوق على اجمل اسلوب وابدع طراز !

وهنا اكبح جماح القلم عن الاطالة في الوصف والفت الانظار الى ما وصلت اليه القيروان – أم المداين الافريقية – من ضخامة البناء وعزة الملك والبذخ الواسع والترف العجيب . وما على القارئ الكريم الّا ان يحدق ببصره قليلا الى مواكب امرآئها ومراسمهم وحفلاتهم فانه يرى المعجب والمطرب [1] . ونحن سنقص عليك طرفاً من اخبارها وفي ذلك بلاغ !

لكن من الفواجع والحسرات الدامية للقلوب ان تلك الحضارة الباهرة والمدنية الزاهرة لم تدم – والامر لله – الّا قرناً او بعض قرن ثم انطفأ سراجها وذبل نورها بيد تلك الجالية الاثيمة التي نزلت بالبلاد باغرآء من الخلفاء الفاطميين فزعزعت أمنها ودكت معالمها وطمست آثارها ومحت محاسنها حسبما نشير اليه بعد .

---

(١) انظر عجالتنا الموسومة « بساط العقيق في حضارة القيروان » طبع تونس سنة ١٣٣٠

الاميرات الصنهاجيات

مقصدنا ان نقص في هذا الباب لباب اخبار ربات الحجال وذوات الدل من نابغات هذا البيت الكريم اللائي ازدان بذكرهن واستنارت قصور الملك بجمالهن وعبقت الارجاء بعبيرهن ، واولهن الاميرة :

﴿أم ملال﴾ واسمها السيدة بنت المنصور بن يوسف الصنهاجي . ولدت بقصر المنصورية الذي ابتناه أبوها بصبرة على ميل من القيروان . وهذا القصر اعجوبة الدنيا لما حواه من بديع الاشكال وحسن الهندام وتعداد الاواوين وكثرة الغرف والمخادع وما حشر اليه من التحف واللطائف والبسط والنمارق والارائك والمقاعد الى غير ذلك من الزخارف الدالة على ما كان للافريقيين من الرسوخ في الصناعات المستظرفة والفنون الجميلة .

شيّد هذا القصر البديع وسط بستان أنيق تتخلله الحدائق الغناء والزهريات المنضدة تجري بين أيكه الامواه العذبة في القنوات منسابة بين البرك الناصعة واحواض المرمر وعلى جوانبها قلائد الزهور الناضرة ، وكانت خمائله اوكاراً ومسارح لانواع الاطيار ذوات الالوان الزاهية والتغريد المطرب بحيث لا تهب الا نسمات الاسحار ، ولا تعبق الا نفحات الازهار ، ولا تسمع الّا خرير المياه ، وحفيف الاشجار ، ونجوى الجمال ، ونغمات الاطيار .

وقد بلغ ما أنفق على هذا القصر فيما رواه المؤرخون [1] ثلاثمائة الف دينار (اربعة ملايين ونصف فرنك ذهباً) .

---

(١) كتاب المؤنس لابن ابي دينار ص ٧٦

ذلك القصر الذي يقول في وصفه شاعر عصره علي بن الايادي التونسي [1] :

ولما استطال المجد واستولت العلا ... على النجم وامتد الرواق المروق
بنى قبة للملك في وسط جنة ... لها منظر يزهو به الطرف مونق
بممشوقة الساحات اما عراصها ... فخضر واما طيرها فهي نطق
تحف بقصر ذي قصور كانما ... ترى البحر في ارجائه يتدفق
له بركة للماء ملء فضائه ... تخب بقطريها العيون وتعنق
لها جدول ينصب فيها كأنه ... حسام جلاه القين بالارض ماصق
لها مجلس قد قام في وسط مائها ... كما قام في فيض الفرات الخورنق
كأن صفاء الماء فيها وحسنه ... زجاج صفت أرجاؤه فهو أزرق
اذا بث فيها الليل اشخاص نجمه ... رأيت وجوه الزنج بالنار تحرق
وان صافحتها الشمس لاحت كأنها ... فرند على تاج المعز ورونق
كأن شرافات المقاصر حولها ... عذارى عليهن الملاء الممنطق
يذوب الجفاء الجعد عن وجه مائها ... كما ذاب آل الصحصحان المرقرق

في هذا القصر ، وناهيك به من قصر حوى المهابة والجلال والجمال ، نشأت ودرجت ﴿ أم ملال ﴾ في كنف والدها صاحب افريقية واخيها باديس ولي عهده . ولا مراء ان تكون الناشئة في هذا المهد وذاك العهد ذات تربية عالية وأدب غض وعلم جم ، وحسبك دليلا ما قدمنا من انصراف العناية الى تربية وتعليم بنات السوآء فاحرى بنات الاقيال والامرآء . ويؤيد ذلك ايضاً ما بلغت اليه هذه السيدة من

---

(١) زهر الآداب للحصري طبعة مصر سنة ١٣١٦ ج ١ : ١٩٩ — والمنتخبات التونسية للمؤلف ص ٥٠

السؤدد والرجحان على عهد أخيها نصير الدولة باديس فانه لما مات والدهـا المنصور وتولى بعده اخوها وكان يعلم تفوقها وعقلها وسعة رأيهـا فاخلصها حبه واشركها في تدبير امره وانتصح برايها في سياسة الدولة وهو هو في تعاليه وبعد غوره ، ولـو لم تكن من العلم بالمرتبة التي تخطت بها اعناقه الدهاقين والفحول لما نالت هذه المكانة في دولة اخيها .

أرسل باديس في سنة ٤٠٥ سفارة الى الحاكم بامر الله الخليفة الفاطمي بمصر مع هدايا ثمينة مشتملة على مائة فرس من الجياد بسروج مرصعة بانواع اليواقيت فاردفتها أم ملال بهدايا نفيسة الى الاميرة (ست الملك) اخت الحاكم [1] ومن ضمنها ثمانية عشر وقراً من الحرير الخالص والسمور والمنسوجات الرقيعة المزركشة بالذهب الابريز صنع مدينة سوسة ، ومنها عشرون فتاة من الجواري الحسان ، وعشرة اعلاج من الصقالبة وغير ذلك [2] . فبعثت لها ست الملك كتاباً تثبت فيه اتصال المودة بينهما وواصلتها بهدية فائقة .

وهكذا كانت أم ملال تشارك أخاها في الاعمال وتقاسمه معالجة سياسة الملك وإحكام الصلات الحسنة مع الدول المجاورة . وقد ساعدها على ذلك ابتلاء اخيها باديس بالقائمين عليه واشتغاله بقمعهم ومطاردتهم في كل صقع يظهرون فيه ، اذ كانت ايـام دولته مملوءة بالثورات والفتن الداخلية لا يقر له قرار دون اصماد الجيوش في وجوه المحاربين وارضاخهم لسلطانه وطاعته ، فاشتغل بالحروب وأوكل لاخته الاشراف على أعمال الدولة وسياسة الرعية .

---

(١) الاميرة (ست الملك) هي بنت العزيز بالله الخليفة الفاطمي وكانت استبـدت بزمام المملكة المصرية على عهد اخيها الحاكم ولها ذكر مشهور في التاريخ الاسلامي

(٢) من البيان المغرب لابن العذاري طبع ليدن سنة ١٨٤٨

ولما ولد لباديس ابنه المعز الملقب بشرف الدولة فرحت به ام ملال كثيراً وتبنته وعنيت بتربيته واعداده لتبوء الملك بعد ابيه فكانت تسلو به عن اخيها ولا تفارقه ، تشتو به في المنصورية وتصطاف به في المهدية وتخرج به في أبهة واحتفال محفوفة بالجند والخدم والعبيد والاعوان شان الدول العريقة في البذخ والعز . ولما ترعرع وانتشى المعز ندبت لتربيته وتقويم نفسه رجل الدولة الخطير العالم ابا الحسن علي بن ابي الرجال الشيباني [1] فاحكم تربيته واحسن تعليمه .

في خلال سنة ٤٠٦ خرج باديس لقمع بعض الثائرين الظاهر بن بالمغرب الاوسط فادركه الاجل المحتوم بمدينة المحمدية المعروفة بالمسيلة ، فمات بعيداً عن اهله وولده ، فكتم أكابر الدولة خبر وفاته خشية انتقاض العامة واتفقوا على بيعة ابنه المعز على حداثة سنه اذ لم يبلغ يومئذ التاسعة من عمره ، فلحدوا أميرهم المتوفي في تابوت وعادوا به الى المهدية .

تسنم المعز ذروة الامارة في ذي الحجة من السنة التي مات فيها ابوه باجماع أكابر صنهاجة ومشيخة القطر وامرآء الجند والفقهاء والعلماء واقاموا عمته (أم ملال) وصية عليه الى ان يبلغ سن الرشد ، فانبرت لتدبير المملكة بهمة وعزيمة يندران في أعاظم الملوك . وخرجت بعد قبول البيعة للمعز والتعزية في باديس محتفلة بولاية الامير الصغير بين البنود والاعلام وهتاف الداعين لتلقي بيعة العامة ثم عادت به الى قصر المهدي وافواج الامة في أثرها جذلين مهنئين مسرورين [2] .

كان المعز ايام اقامته بالمهدية يغدو كل صباح الى (قبة السلام) المشرفة على البحر ويحضر بنفسه إطعام الضعفآء من الناس ثم يعود الى القصر .

---

(١) البيان المغرب

(٢) البيان المغرب ايضا ج ١ ص ٢٧٩

تولت السيدة أم ملال الامور وتصرفت في الشؤن بحسن تدبير ورأي ثاقب. ولم يقص علينا التاريخ فيما روي ان امرأة مسلمة حكمت افريقية غير هذه الاميرة الفاضلة، واستمرت على ذلك الى ان بلغ محجورها سن الرشد وتأهل لاستلام أزمة الملك، وكان المعز حافظاً للصنيعة التي لها عليه مقدراً لفضلها لما نال على يدها من رسوخ الذهن وتوقد العزم وبعد النظر في الامور ولولا عنايتها به وحياطتها له لما ادرك من الشهرة وبعد الصيت ما جعله أنبغ ملوك عصره وعد مفخرة من مفاخر هذا القطر. ولم تطل ايام أم ملال مع محجورها بل أصيبت بمرض اعضل أمره ولم تزل به الى ان ماتت رحمة الله عليها.

وقد ذكر ابن العذاري[1] بمناسبة مرض الاميرة وموتها وعناية المعز بها ما يدل على تأصل مروءته ومكافأته الجميل بالجميل انه «لما مرضت أم ملال كان شرف الدولة المعز يزورها في كل يوم من ايام مرضها ويجلس حذوها طويلا ويلاطفها ويسليها ويرخص لرجال دولته واتباعه الدخول عليها ليعودوها، ودام ذلك الى ان ختم الله انفاسها آخر يوم من رجب سنة ٤١٤ فصلى عليها المعز وأقام لها جنازة عظيمة لم ير مثلها لملك من الملوك وشيعت جنازتها بالبنود والطبول وحضر هذا الموكب الاميرتان أم المعز بن باديس واخته». وذكر ابو القاسم الرقيق وهو ممن شاهد ذلك[2] قال:

«كفنها المعز بما قيمته مائة الف دينار، وعمل لها تابوتاً من العود الهندي مرصعاً بالجواهر وصفائح الذهب وسمر التابوت بمسامير الذهب وزنها الف مثقال وادرجت في مائة وعشرين ثوباً، وذر عليها من المسك والكافور ما لا حد له، وقلد

---

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٣

(٢) المؤنس ص ٨١

التابوت باحدى وعشرين سبحة من نفيس الجوهر . وقومت التجار ما صرف عليها فبلغ ما ذكرناه . وحملت الى المهدية فدفنت هناك[١] . وامر المعز بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر والف شاة فنحرت وانتهبها الناس وفرق في مأتمها على النسآء المعوزات عشرة آلاف دينار. ورثاها شعراء البلاط وكانوا أكثر من مائة شاعر بمراثي جليلة[٢]

هذه نبذة من حياة (أم ملال) تبين للقاري كيف ملكت ناصية البلاد بثاقب رأيها وصائب حكمتها وكيف حفظتها لابن اخيها وربيبها وكيف هيأته وأعدته للملك الى غير ذلك من العظائم التي يندر العثور عليها في حياة مشاهير الرجال .

---

(١) التحقيق انها دفنت اولا بالمهدية ثم نقلت الى المنستير الى مقبرة امرآء صنهاجة المعروفة بمقبرة (السيدة) نسبة الى هذه الاميرة وهي في وسط البلد المذكور لحد الآن .

(٢) ومما يجمل بنا ذكره ايضا من مآثر هذه السيدة انها أوقفت كتباً قيمة على جامع القيروان من جملتها مصحف شريف في نهاية الجمال من حيث تنسيق الخط وتزويق رقوقه البديعة . ومن حسن حظي ان وقعت بمكتبة جامع عقبة على ورقة بها تحبيسها لهذه الختمة المباركة ونصه : « حبست السيدة الجليلة أم ملال وفقها الله هذا المصحف الجامع لكتاب الله العظيم على جامع مدينة القيروان افريقية لوجه الله الكريم وتعرضاً لجزيل ثوابه ، وكان هذا الحبس على يدي القاضي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن هاشم » . عاملها الله تعلى بخالص نيتها وبلغها في الدار الآخرة أمنيتها .

٢ — ام العلو

هي الاميرة ﴿ أم العلو ﴾ بنت نصير الدولة باديس واخت المعز. تربت في قصور صنهاجة بين المنصورية والمهدية في كفالة عمتها السيدة أم ملال المتقدمة وتغذت من لبان تربيتها الراقية. ثم انها لما بلغت من العمر السابعة عشر — وقد ماتت ام ملال — زوجها أخوها ووليها من ابن عمه الامير عبد الله بن حماد الصنهاجي صاحب المغرب الاوسط فزفت اليه في أبهة عظيمة نكتفي في وصفها بما رواه المؤرخ ابن العذاري قال[1] : « في رجب من سنة ٤١٥ تزوجت السيدة ﴿ أم العلو ﴾ بنت نصير الدولة باديس أخت شرف الدولة المعز . فلما كان يوم الاربعاء غرة شعبان المكرم زين الايوان العظيم للسيدة الجليلة أم العلو ودخل الناس خاصة وعامة فنظروا من صنوف الجوهر والاسلاك والامتعة النفيسة وأواني الذهب والفضة ما لم يعلم مثله ولا سمع لاحد الملوك قبله . قال ابو اسحاق ابراهيم الرقيق : فبهر عيون الخلق حال ما عاينوه وأبهتهم عظيم ما شاهدوه ، وحمل جميع ذلك الى الموضع الذي ضربت فيه الابنية والقباب والاخبية ، وحمل المهر في عشرة أحمال على عشرة بغال على كل حمل جارية حسناء ، وجملته مائة الف دينار عيناً . وذكر بعض حذاق التجار انه قوم ما هو لها فكان زائداً على الف الف دينار (أي ٣٥ مليون فرنك ذهباً) وهذا ما لم يرقط لامرأة قبلها بافريقية . وزفت العروس في يوم الخميس ومضى بين يديها عبيد أخيها شرف الدولة وأبيها نصير الدولة وجدها عدة العزيز بالله ووجوه رجال الدولة . فكان يوماً سارت الركبان بمحاسن آثاره ، وامتلأت البلدان بعجائب اخباره » .

---

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٤

وربما يتبادر للذهن ان ما ذكره المؤرخون فيه مبالغة ، لكن الحال والحقيقة يؤيدان صحة هذا النقل ، فان الباحث في التاريخ عن الرقي الاجتماعي في ذلك العصر يرى ان ما أنفقه المعز على مأتم عمته وتجهيز أخته كان مناسباً لثروة البلاد وقتئذ لكثرة الاموال في ايدي الناس وتوفر وسائل الارتزاق وامتداد البسط والرخاء بارتقاء الفلاحة ورواج التجارة وانتشار المصنوعات الافريقية في مشارق الاقطار ومغاربها . ولا شك ان وفرة المال في الامة تستوجب وفرة مداخيل الدولة فتتوسع على الامرآء ومن حولهم دائرة الترف والبذخ العائد صرفها في الاخرة على عموم الطبقات من التجار وارباب الصنائع وغير ذلك .

ولنعد لاخبار هذه الاميرة ، فانها بعد ان تزوجت من ابن عمها انتقلت الى سكنى القلعة عاصمة الامارة الحمادية فاقامت هنالك في أرغد عيش الى ان عزم أخوها على محاربة قبائل زناتة الظاعنين بارض طرابلس وقد خالفوا عليه واظهروا الفساد والعناد . فاستعان المعز بابن عمه وصهره على قتالهم وتم الامر على ذلك .

وقدم عبد الله بن حماد في جيشه وصحبته قرينته الجليلة . وبعد أن استراحا اياما بالقيروان « زحف المعز — في عام ٤٣٠ — الى زناتة بجهات طرابلس فبرزوا اليه وهزموه وقتلوا عبد الله بن حماد الصنهاجي وسبوا أخته ﴿ أم العلو ﴾ بنت باديس ثم اطلقوها بعد حين الى اخيها [1] . »

فانظر يا رعاك الله كيف كانت السيدات العربيات يصحبن رجالهن في ميادين القتال والطعن وكيف يشاركن في الابتلاء بالاسر ، ويقابلن الشقاء والعناء بالصبر !

---

(١) ما هو بين هلالين منقول من لفظ ابن خلدون ـ طبع الجزائر ج ٢ ص ٥٩

فما ابعد هذه التربية من تربية بناتنا اليوم [١] ؛ ولكن هي في الحقيقة ·

شيم مرت الليالي عليها والليالي قليلة الانصاف

٣ - فاطمة الحاضنة

احتوى بلاط بني زيري الصنهاجيين على حشم عديد يتألف من جوار شرقيات وحظايا أعجميات ساقهن الى قصور القيروان حسن السمعة والصيت البعيد .

من بين العقائل اللائي ضمهن هذا الحشم العديد مخدرة موصوفة بجمال الهيئة والادب امتازت على جواري القصر بسعة الادراك وعلو الهمة . وهي ﴿ فاطمة ﴾ المشهورة بالحاضنة . أصل هذه المرأة من بلاد النصارى [٢] أسرها بعض غزاة البحر

---

(١) عثرت بمكتبة جامع عقبة العتيقة بالقيروان على ورقة رق بخط القاضي عبد الرحمن بن محمد بن هاشم - وهو قاضي المعز بن باديس - مكتوب بها توقيف هذه الاميرة لمصحف شريف على احد مساجد القيروان ونص ما بالورقة : « مما أمرت بتحبيسه السيدة أم العلو حرسها الله على مسجد ابي عبد المطلب بباب سلم ابتغاء ثواب الله العظيم وكفى بالله شهيداً . »

ومن هنا يتضح لك ان توقيف الكتب - ولا سيما المصاحف - كان سنة متبعة عند الاميرات الصنهجيات كما رأيته في ترجمة أم ملال وستراه في اخبار فاطمة الحاضنة .

(٢) معالم الايمان ج ٣ ص ١٧٥

وسيقت الى المهدية ثم الى القيروان على عهد الامير المنصور الصنهاجي فاقتناها من بعض الربابنة وادخلها لحرمه . ولما رأى عليها من مخائل التدبير والفكر اختصها لحضانة ابنه باديس ، ومن ذلك الحين عرفت باسم (فاطمة الحاضنة) .

وقد اسلمت ورسخت عقيدتها وعز جانبها حتى اندمجت في صف الاميرات الصنهاجيات وصارت بينهن محل الرعاية والتكريم .

ولما استتب الامر الى المعز بن باديس رفع مقامها وزاد في احترامها تعظيماً لحاضنة أبيه ومؤدبته فنالت فاطمة في مدته حظوة كبيرة لصدق سريرتها وامانتها وعفتها — والانسان أسير الاحسان — وقد اشتهرت فاطمة بالفضيلة والورع وفعل البر حتى باهت باعمالها الخيرية كبار رجال ونساء عصرها .

يكفيها فخراً وقفها على جامع عقبة بالقيروان الكتب النفيسة والمؤلفات النادرة التي ما زال بعضها يشاهد ليومنا هذا بالرغم عن توالي السنين وتعاقب الفتن والتخريب والنهب ، فمن يزر الخزينة العتيقة بجامع عقبة ير بها رقوقا مقنطرة من المصاحف المخطوطة بالذهب المذاب المكتوبة بالخط الكوفي العجيب وقد رقم بعضها على القباطي اللازوردي البديع . ومن جملة ذلك مصحف شريف متناهي الحجم مرسوم بآخره نص التحبيس وصورته [1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . قالت فاطمة الحاضنة ، حاضنة أبي مناد باديس ، حبست هذا المصحف بجامع مدينة القيروان ، رجاء ثواب الله وابتغاء مرضاته على يد القاضي عبد الرحمن بن القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم نضر الله وجهه ، آمين

---

(١) راجع صورة ذلك في كتاب « البرنس في باريس » تأليف حبيبنا السيد محمد المقداد الورتتاني ص ٢٠٤

رب العالمين . ودلك في شهر رمضان من سنة عشر واربعمائة ، فرحم الله من قرا ودعا لهم ولجماعة المسلمين بالرحمة والمغفرة . وصلى الله على النبيء محمد وعلى آله وسلم تسليما » .

وبالوجه الثاني من الورقة ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . كتب هذا المصحف وشكله ورسمه وذهبه وجلده علي بن احمد الوراق للحاضنة الجليلة حفظها الله على يدي ﴿ درة الكاتبة ﴾ سلمها الله . فرحم الله من قرأ فيه ودعا لهما بالرحمة والمغفرة والنجاة من عذاب النار . آمين رب العالمين » .

وقد جعلت المحبسة رحمها الله المصحف المشار اليه في صندوق من الخشب الثمين مستطيل الشكل رسمت عليه هذه العبارة : « حبس على جامع مدينة القيروان مما أمرت به فاطمة حاضنة باديس في سنة عشرة واربعمائة ابتغاء وجه الله الكريم وطلب مرضاته » وهذا الصندوق موجود ببيت صلاة المسجد المذكور لحد الآن .

ولم تزل فاطمة معززة مكرمة والمعز يبالغ في الانعام عليها ويعاضد مساعيها الى ان ماتت – في حدود سنة ٤٢٠ – ودفنت بما لاق بها . قابل الباري تعالى عملها بالاحسان . وأغدق عليها من فيضه الواسع سحائب الرحمة والرضوان .

٤ – أم يوسف

واسمها ﴿ زليخاء ﴾ حليلة الامير المعز بن باديس . كانت من شهيرات نساء عصرها حسناً وجمالا واوفرهن عقلا وكمالا .

قال ابن ابي دينار [١]: صنع المعز وليمة لعرسه بام يوسف — سنة ٤١٣ — لم يكن مثلها لاحد في بلاد المغرب ، ولما بدأ بالحركة للعرس نصبت القباب خارج المدينة ونشر ما هيأ من الاثاث والثياب . وحضر من آلات الملاهي والطرب ما لا يوصف ، وبنيت له مصانع وقصور لم ير مثلها ، وصنع ايوانه الاعظم وبنى الخورنق تشبيها بخورنق النعمان بن المنذر بالعراق » .

فكانت زليخا أصدق زوج لاكرم أمير . وقد وجد بها المعز وجداً شديداً حتى كان لا يستطيع فراقها سفراً أو حضرا .

وفي عام ٤٢٥ نزل بافريقية وبآء جارف أصاب الحواضر والبوادي وحصل منه فناء كبير في السكان وعجزت عن رده همة المدبرين ، فكان من جميل عمل ﴿ أم يوسف ﴾ وكريم خصالها ان تصدقت على موتى الفقرآء والمعوزين بستين الف كفن احتساباً لوجه الله تعالى [٢].

فانت ترى ان ما تقوم به اليوم ميسورات الافرنج من التبرع بالملابس والثياب على جرحى الحرب — لا سيما الحرب الاوربية الكبرى الجارية — وعلى مرضى المستشفيات والملاجي تخفيفا لوطأة الآلام البشرية له أصل متين وأثر حكيم في الهيئة الاسلامية بهذه البلاد .

على ان عمل الاميرة زليخاء انما كان الباعث عليه ابتغآء مرضاة الله بينما احسان المتبرعات الغربيات اليوم هو مؤسس على دعامة حب الوطن وايثار جنس عن جنس وشتان ما بين الصنيعين . لكن لكل عمله ولكل من دهره ما تعود !

---

(١) كتاب المؤنس ص ٨٢

(٢) كتاب السير للشماخي طبع مصر سنة ١٣١١ ص ٤١٥

٥ - بلارة

الاميرة (بلارة) هي بنت تميم بن المعز بن باديس . كان مولدها بالمهدية مدة استيلاء أبيها عليها . وهي العاصمة الثانية التي انتقل اليها تخت افريقية بعد القيروان

عنى تميم بتربية ابنته تربيةً عربية متينة مؤسسة على العلم والدين . وكان أبوها معتنيا بالعلم مقدراً لفائدة التعليم . وهو من فحول الشعراء المجيدين المشار اليهم بالبنان في افانين البلاغة وحسن البيان . ولا غرو اذن ان يعتني بتربية ابنته تربية عالية تضارع تربيته وعلمه .

ولما شبت بلارة وتكامل تهذيبها وحسن تأديبها رغب الامرآء في خطبتها ومن آحادهم ابن عمها (الناصر بن علناس) الصنهاجي صاحب قلعة بني حماد وبجاية وكانت إذ ذاك إمارة مستقلة فقبل تميم من ابن عمها الخطاب بالايجاب وامهرها الناصر ثلاثين الف دينار ذهباً - نحو مليون فرنك - فأخذ منه تميم ديناراً واحداً ورد الباقي[1]

وفي سنة ٤٧٠ أدرجت العروس من المهدية في عسكر كثيف ومعها من الجهاز والحلي والنفائس ما لا يحد ولا يعد . وزفت الى الناصر في أبهة يقصر دونها الوصف . ولما اوى اليها الناصر ورأى من عقلها وعلو همتها وكرم شمائلها ملكت شغاف قلبه وأحبها حبا شديداً ، وابتنى لها بقلعة بني حماد وبجاية قصورا شامخة وأحاط بها الحدائق الانيقة فيها الروح والريحان ، ومن كل فاكية زوجان ، ومن تحتها الانهار الدافقة ، والازهار الشائقة ، وجلب اليها كل ما تشتهي الانفس ، وتلذ الاعين ؛ اكراما واحتفاءً بزوجه الاميرة بلارة . واختصت الاميرة لاقامتها إيوانا بقلعة بني حماد اشتهر لذلك

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ١٠ ص ٤٤

باسمها وهو (قصر بلارة) وقد محا اليوم محاسنه الزمان وطمس رسمه الحدثان .
وفي خرابه يقول الشاعر الصنهاجي ابو عبد الله محمد بن حماد نادباً تلك الاطلال[1]:

ان العروسين لا رسم ولا طلل ... فانظر ترى ليس الا السهل والجبل
وقصر بلارة اودى الزمان بـه ... فأين ما شاد منها السادة الاول
قصر الخلافة أين القصر من خرب ... غير اللجين وفي ارحابها زحل
وليس يبهجني شيئـا أسر بـه ... من بعد ان نهجت بالمنهج السبل
وما روى الكوكب العلوي معتصم ... وقد عرى الكوكب التغيير والندل
وان في القصر قصر الملك معتبراً ... لمن تغر بـه الايـام والـدول
كرجعك الطرف كانت كل آبرة ... فما تراه كذلك العمر والاجل

والقصيدة طويلة اقتصرنا منها على ما نقلناه . ورزق الناصر من الاميرة بلارة بامرآة نبلاء وكان اطراهم ذكراً واعلاهم كعباً المنصور بن الناصر [2]، وعاشت بلارة محظية معززة ايام زوجها الناصر وامداً من ايام ابنها المنصور ولحقت بربها على عهده والبقاء لله وحده .

خدوج الرصفية

بالساحل الشرقي من القطر التونسي – في جوف هاد لطيف التقـوير – كان مرسى صغير يعرف باسم رصفة – بضم الرآء – تلتجي اليـه بعض فلك صيـد السمك في زمن الشتآء اذا تلاطمت امواج البحر المتوسط وهاجت رياحه العاصفة .

---

(١) اعمال الاعلام ص ٣٨
(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٣٠٩

في اواسط القرن الرابع للهجرة نبغت في هذا المرفأ اديبة فصيحة من عائلة عربية كان قدم أوائلها بعد الفتح الاسلامي . ولسوء الحظ لم يحصل لنا من العلم بحال هذه الّا شيء قليل رواه شاعر قطرنا ابن رشيق في كتابه « الانموذج » حيث قال [1]:

« هي خديجة بنت احمد بن كلثوم المعافري ، وخدوج لقب لها ، شاعرة حاذقة مشهورة ، لها ترسل لا يقع مثله الّا لحذاق المترسلين » وهي لعمرى شهادة ذات قيمة معتبرة .

وغاية ما نعلمه من حياتها ان شاباً ظريفاً مشتهرا بالشعر – أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله – تعلق بها تعلقا شديداً وقد مال قلب خدوج اليه ايضا لادبه وكياسته ، فجاشت قريحتها ونبع ذوقها السليم بالنظم الرقيق الجيد . وكأن بعض الوشاة المغرضين تصدى لغرامهما فكدر صفوه ، فمن شعرها في ذلك :

فرقوا بيننا فلما اجتمعنا ... مزقونا بالزور والبهتان
ما أرى فعلهم بنا اليوم الّا ... مثل فعل الشيطان بالانسان
لهف نفسي عليك بل لهف نفسي ... منك ان بنت يا أبا مروان

ومن هذه الابيات يتضح أن امر خدوج وحبيبها ذاع خبره بين أهل رصفة – شأن الارياف في كل عصر ومصر – فغار لذلك أخوتها وفرقوا بين العاشقين ، ولم يقبل لابي مروان طلبه يد خدوج بل انه أبعد منها ورد عنها ، والى هذا الحادث المؤلم أشارت في كتاب أرسلته الى أخيها الاكبر ختمته بقولها :

---

(١) وعن الانموذج نقل عماد الدين الاصفهاني في كتابه خريدة القصر (قلم) وياقوت الحموي في معجم البلدان : لفظ رصفة

ااخي الكبير وسيدي ورئيسي	ما بال حظي منك حظ بخيس ؟
أبغي رضاك بطاعة مقرونة	عندي بطاعة ربي القدوس
يا سيدي ما هكذا حكم النهى	حق الرئيس الرفق بالمرؤس
واذ رضيت لي الهوان رضيته	ورأيت ثوب الذل خير لبوس

فانت تري العاطفة النسائية تجلل هذا الشعر النزيه . ومن قرأه ولم يدر قائله علم انه شعر آنسة في نهاية التربية تستنزل به العطف من اخيها الاكبر وهو وليها .

ولخدوج مع أبي مروان نوادر اشعار كثيرة عليها طلاوة من الادب ومسحة من العفاف [1].

---

(١) المشهور عند علماء الاثار ان مدينة وصفة المذكورة هنا هي المسماة قديما عند القرطاجنيين والرومان والروم باسم Ruspea وان مكانها هو عين موضع بلد (الشابة) الآن الواقعة على رأس قبودية ما بين المهدية وصفاقس ، ومن اغرب ما ألاحظ انه لحد اليوم بقرب رأس قبودية المتقدم انقاض محرس قديم ضخم البناء عربي الهيئة به منار عال يكشف منه عرض البحر يعرف الى وقتنا باسم (برج خديجة) — فلا يبعد ان تكون هذه التسمية نسبة الى شاعرتنا الرصفية ذائعة الصيت في زمانها ، وربما كان ايضا نزل اهلها المعافريون قريبا من المحرس فاشتهر لذلك باسم خديجة النابغة ، ونظير هذا كثير في تسمية المعاقل والابراج والحصون ، وفوق كل ذي علم عليم .

زحفة الاعراب

بينما اهل افريقية في مثل هذا الرغد من العيش يتمتعون بما أنعم الله عليهم من البسط ويستنمون ذرى الحضارة ويسيرون سيرهم الحثيث في الرقي ، والدنيا مقبلة عليهم اذ صاح بهم صائح الخراب فاستوقفهم عن سيرهم وقدف بهم في لجي الفتن والهلاك .

والسبب في ذلك وحشة حصلت بين الامرآء الصنهاجيين وخلفآء مصر الفاطميين . فكان من كيد هؤلاء الآخرين ان سرحوا على ملك صنهاجة أجلاف عشائر بدوية واحلاف فوضى وهمجية من ورآء النيل وهم قبائل هلال وسليم وزغبة فنزلوا الى افريقية في عدد يتجاوز ميات الالاف . واجتازوا تخومها وهتكوا سياج منعتها فقلبوا سافلها على اعلاها وجعلوا تمدنها أثراً بعد عين .

قال ابن خلون [1] : « وجآء الاعراب فدخلوا البلد واستباحوه ، واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في مساكنها ، وطمسوا من الحسن والرونق معالمها ، واستصفوا ما كان لآل بلكين الصنهاجيين في قصورها ، وشملوا بالعيث والنهب سائر من فيها ، وتفرق اهلها في الاقطار ، فعظمت الرزية واستشرى الدآء واعضل الخطب واضطرب أمر افريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها . . . وعاجوا على ما هنالك من الامصار ، وازعجوا ساكنها ، وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أفقر من بلاد الجن ، واوحش من جوف العير . . . وسارت قبائل

---

(١) ابن خلدون – طبع الجزائر ج ١ ص ٢٠ وما بعدها .

دباب وعوف والزغب وجميع بطون هلال الى افريقيـة كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء الّا اتوا عليه حتى وصلوا الى القيروان سنة ٤٤٩ »

فاغتصبوها وأتوا على عمرانها وسعادة سكانها ، والسعادة الخالصـة من شوائب الزمان وعواقب الحدثان عزيز في الارض مقامها :

واذا نظرت الى البلاد وجدتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

***

الجازيـة الهلاليـة

كان في هؤلاء الاعراب لعهد دخولهم افريقية رجالات مذكورون ، وكان من اشهرهم حسن بن سرحان واخوه بدر واختهما ﴿ الجازية ﴾ وهم ينسبون في دريد من هلال .

ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم الى افريقية طرق في الخبر غريبة : يزعمون ان الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتوح وأنه أصهر الى حسن بن سرحان في أخته ﴿ الجازية ﴾ فزوجه اياها وولدت منه اولادا ، وانه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة واجمعوا على الرحلة عن نجد الى افريقية وتحيلوا عليه في استرجاع الجازية فطلبت منه زيارة قومها فازارها اياهم وخرج بها الى احيائهم فارتحلوا به وبها وكتموا رحلتهم عنه وموهوا عليه بانهم يباكرون به للصيد والقنص ويرجعون به الى بيوتهم بعد ، فلم يشعر بالرحلة الى ان فارق موضع ملكه وصار الى حيث لا يملك أمرها عليهم ففارقوه ورجعوه الى مكانه وبين جوانحه من حبها داء دخيل ، وان الجازية بعد ذلك كلفت به بمثل كلفه .

والهلاليون متفقون على الخبر عن حال الجازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل ، ويكاد القادح فيها والمستريب في امرها ان يرمى عندهم بالجنون والجهل المفرط لتواترها بينهم .

ومن مزاعمهم ان ﴿ الجازية ﴾ لما صاروا الى افريقية وفارقت الشريف خلفه عليها منهم (ماضي بن مقرب) من رجالات دريد [1] .

وكان لدريد – قبيلة الجازية – بين هلال السيادة والمنزلة الرفيعة ومظاعن دريد اليوم باعمال باجة وماطر والكاف وتبرسق [2] – وكان لحسن بن سرحان عند دخولهم الى افريقية الرئاسة على جميع بطون الاعراب . يقول بعض شعرائهم يفخر بقومه :

تحنُ الى أوطان صبرة ناقتي ... لكن مع جملة دريد حوارها
دريد سراة البدو للجود منقع ... كما كل أرض منقع المآ خيارها
وهم عربوا الاعراب حتى تعرفت ... بطرق المعالي ما ينوفي قصارها
وتركوا طريق البارمين ثنية ... وقد كان ما يقوى المطايا حجارها

---

(١) اقتطفنا هذا الفصل من ابن خلدون وكان من اعلم اهل زمانه باخبار هؤلاء الهلاليين وحكاياتهم واشعارهم – ج ١ ص ٢١ طبع الجزائر .

(٢) أقول ان مشاهير النسابين من اعرابنا يقسمون اليوم قبيلة دريد الى اربعة بطون (عشاير) كبيرة وهي : اولاد مناع ، اولاد جوين ، بني رزق ، اولاد عرفة ، ويجعلون الجازية من اولاد مناع . وقد يذكر اعيان هذا البطن انتسابهم اليها الى الآن ، ولا مشاحة في الانساب وأهل مكة ادرى بشعابها . وعلى كل حال فلم يزل عرب دريد اهل نخوة عربية معروفة .

ومن تلك العصور الخالية اعتاد سكان القطر التونسي – حضرهم وبدوهم – ضرب المثل بصورة الجازية في وصف الجمال التام ، فمتى أرادوا تشبيه امرأة جمعت بين الحسن الباهر والعقل الوافر قالوا هي (الجازية) في الكمال والتفكير وهي (الجازية) في الرأي والتدبير ، وقد يتناقلون الحكايات الظريفة عنها ما يعني عن أخبار مجنون ليلى وكثير عزة ، ويروون لها من الاشعار المنسجمة في الموعظة والنصح ما يملأ المجلدات لو جمع .

تعلق بمحفوظنا من ذلك قولها تخاطب ابنها :

لا خير في الطفل الصغير اذا نشا ... وكان رقّاد كثير همائده
اذا ما قض الشرق والغرب والسوا ... وقطع بين الثنايا مزاوده
اما يموت ويرتاح من عيشة الردى ... والا يروح كما الصقر مالي مخالبه

وكلامها في معنى الحكمة والاعتبار كثير متداول لا سيما بين ساكني الخيام وهو سمر الحي وفكاهة المجالس .

***

المستعمرات العربية

تسنى لمسلمي افريقية اوائل القرن الثالث ان يستولوا على غالب جزائر البحر المتوسط الغربية كصقلية ، ومالطة ، وقوصرة (المسماة بنطلارية الآن) وغير ذلك .

وما كاد الجيش الفاتح يتم اعماله الحربية حتى استعمر سكان الساحل التونسي تلك الجزائر ونقلوا اليها طرق تمدنهم وعوائدهم واخلاقهم ولسانهم العربي .

دام مقام الافريقيين بتلك المستعمرات الى اواسط القرن السابع[١] ولم تزل للدولة العربية هنالك أثار مشاهدة وبقايا خالدة تدل على قوة سلطانهم وتمكن عمرانهم من الامم والبلاد الخاضعة لحكمهم . فهذا الشعب المالطي المسيحي النحلة ما زال يتكلم بلهجة عربية المأخذ والاصل وان طرأت عليها طوارق الدخيل والتحريف[٢] . وهذه اللهجة الصقلية القوصرية تشتمل على المئين من الالفاظ العربية علاوة على ما احتوته الجزيرتان من المعالم القائمة الذات[٣] والعوائد الاسلامية المنتحلة من ذلك الزمان الغابر .

ميمونة الهذلية

الزائرون من ابناء تونس لمالطة يعدون بالالوف وقل منهم من بحث عن آثار اجداده بها ، ولو تنبه من دخل منهم متحفها لشاهد من بين محفوظاته لوحا رخاميا مخطوطا بالقلم الكوفي المزهر يبهج الناظرين لطفا وجمالا ويهيج لهم العبرة والادكار .

---

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٤٠٩ طبع الجزائر

(٢) راجع كتاب الواسطة في اخبار مالطة ص ٥٦ — وكتاب صفوة الاعتبار لبيرم ج ٤ ص ٧١ وما بعدها .

(٣) تاريخ صقلية على عهد المسلمين للمؤلف (باللغة الفرنساوية) طبع تونس سنة ١٩٠٥ وكتاب « ذكرى مالطة العربية » للمؤلف ايضا . لم يطبع بعد

ساقني القدر للاطلاع على ذلك اللوح الجميل المعثور عليه (بالمدينة) عاصمة جزيرة مالطة في الدور الاسلامي قبل ان تنتقل الى (لافاليطة) تختها الحالي وهذا ما قرأت عليه [١] : (باطراف اللوح)

يا من رأى القبر اني قد بليت به ... والترب غير[٢] اجفاني وءآماقي
في مضجعي ومقامي في البلى عبر ... وفي نشوري اذا ما جئت [٣] خلاقي
انظر بعينيك[٤] هل في الارض من باقي ... او دافع الموت او للموت من راقي
الموت اخرجني قصرا فيا أسفي ... لم تنجني [٥] منه ابوابي واغلاقي [٦]
وصرت رهنا بما قدمت من عمل ... محصى علي وما خلفته [٧] باقي

(وفي وسط محراب اللوح) : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على النبيء محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ؛ لله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفنا ،

---

(١) أنبه القاري ان المرحوم أحمد فارس الشدياق كان قرأ قبلي هذه الرخامة ونشر صورتها وترجمتها في المجلة الاسوية الفرنساوية سنة ١٨٤٧ ص ٤٣٧ . بيد انه اورد بعض الالفاظ على غير معناها فيما اعتقد ولذلك نصصت هنا على اختلاف الروايتين .

(٢) عبر بدل غير

(٣) اذا ماخط عوض اذا ما جئت

(٤) بقلبك بدل بعينيك

(٥) ينجني عوض تنجني

(٦) ايواني واعلاقي بدل أبوابي واغلاقي

(٧) وما من خلفه بدل وما خلفته

ولكم في رسول الله اسوة حسنة ؛ هذا قبر ميمونة بنت حسان بن علي الهذلي وغد ابن السوسي[1]. توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن في سنة تسع وستين وخمسمائة . وهي تشهد ان لا اله الّا الله وحده لا شريك له . »

فانت ترى هذه المهاجرة الافريقية كيف تتأوه على فقدان عز مسكنها المزخرف بمالطة وكيف تتحسر مما يؤل اليه جمالها الزاهر لما يضم القبر عليها جوانبه المظلمة ويملأ ترابه عينيها الدعجاوين .

لكن لتطمئن روح تلك الآنسة الطاهرة فان تذكارها لا يضمحل ابدا ما دام ذلك اللوح الباهر محفوظا باحترام ، فهو لعمري دعامة من دعائم السيادة العربية في تلك الجزيرة !

ما مات من كان حيا ذكره ابدا
وفي الدفاتر قد تتلى صنائعه

---

(١) الوغد هو النائب أو ناظر الاملاك ، والسوسي نسبة الى مدينة سوسة بالساحل التونسي ، ولا يخفى انه من دار صناعة هذه المدينة خرج الاسطول الافريقي مدة الاغالبة لفتح جزائر صقلية ومالطة وقوصرة

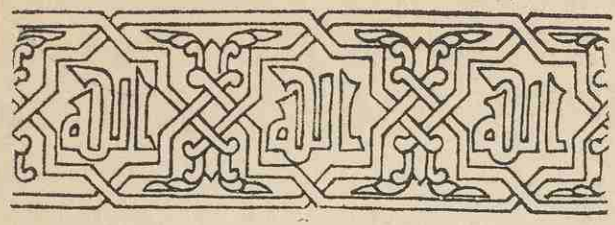

الدور الحفصي

تمهيد - على دارس رسم الامارات الصنهاجية أسس بنو حفص - أوآئل القرن السابع - مملكة متسعة الاكناف تمتد اطرافها من الجزائر الى آخر طرابلس الغرب .

وقد جعلوا حاضرة تونس قلباً لها فاتخذوها قاعدة لادارة شؤون ملكهم وتختا لسلطانهم العظيم . ولم تلبث تونس الّا قليلا حتى صارت محط رحال تجار المشرق ومهاجري الاندلس وفيهم الطبيب والفقيه والمهندس والاديب وغير هؤلآء من ارباب الصنائع واصحاب الحرف ، فتدفق عمران تونس وغزرت حضارتها وراجت بها سوق العلم والادب بسبب انتشار التعليم للبنين والبنات على السوآء خصوصا وقد انشئت من اول الدولة المعاهد العلمية .

وكان للاميرات الحفصيات الحظ الاوفر والسعي الاكبر في تشييد المدارس وتجهيزها بالاوقاف الطائلة وخزائن الكتب الضخمة . وسنقص عليك من نبإهن أثراً يسيرا .

فرجة النساء

يعود الفضل في الحركة التمدينية والنهضة العلمية الظاهرة في هذا الدور لافراد من الاسرة المالكة الحفصية توفرت فيهم شروط اللياقة لا سيما في مبدأ الدولة — والدول تزهو في أوائلها .

ناهيك ما انشاه المستنصر بالله الاول — المتولى سنة ٦٤٧ — من القصور الشامخة والبساتين الشائقة (كأبي فهر) و (رأس الطابية) لنزهة حشمه وفرجة حرمه ، ولقد أحسن مؤرخنا الكبير ابن خلدون في وصفه لبعض تلك المصانع حيث قال[1]:

« واتخذ المستنصر بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف (بابي فهر) يشتمل على جنات معروشات وغير معروشات اغترس فيها من شجرة كل فاكهة من اصناف التين والرمان والنخيل والاعناب وسائر الفواكه واصناف الشجر ، ونضّد كل صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البري وسمى دوح هذه (بالشعراء) واتخذ وسطها البساتين والرياضات بالمصانع والحدائق وشجر النور والنزه من الليم والنارنج والسرو والريحان وشجر الياسمين والخيري والنيلوفر وامثاله ، وجعل وسط هذه الرياض روضا فسيح الساحة وصنع فيه للماء حائزا من عداد البحور جلب اليه الماء في القناة القديمة التي كانت ما بين عيون زغوان وقرطجنة متى تنبعث من فوهة عظيمة الى صهريج عميق المهوى رصيف البناء متباعد الاقطار مربع الفنا مجلل بالكلس فيفهق حوضه وتضطرب امواجه تطرقه الحظايا عن السعي بشاطئه لبعد مداه فيركبن في الجواري المنشئات ثبجه فيتبارى بهن تباري الفتح .

---

(١) ابن خلدون طبع الجزائر ج ١ ص ٤١٢

ومثلت بطرفي هذا الصهريج قبتان متقابلتان كبراً وصغرا على اعمدة المرمر مشيدة جوانبها بالرخام المنجد ورفعت سقفها من الخشب المقدر بالصنائع المحكمة والاشكال المنمقة الى ما اشتمل عليه هذا الرياض من المقاصير والاواوين والحوائز والقصور غرفا من فوقها غرف تجري من تحتها الانهار .

« ثم وصل المستنصر ما بين قصوره ورياض (راس الطابية) بحائطين ممتدين يحوزان عرض العشرة أذرع يحتجب به الحرم في خروجهن الى تلك البساتين حتى لا تقع العيون عليهن فكان ذلك مصنعا فخيما واثرا على ايام الدولة خالدا . »

***

مفاخر الملوك

ان كان العفو عند المقدرة ، والحلم بعد الغضب ، والصفح عقب الانتصار من الخصال الحميدة ، والخلال المجيدة ، التي يتحلى بها عظماء الرجال ، وقروم الابطال فاحرى بها ان تكون من شيم الملوك واصحاب السلطان وكبراء الامم وذوي الشان.

عرف المولى ابوزكرياء الاول – مؤسس الاسرة الحفصية – بانه نادرة زمانه ، وباقعة دهره ، ونسيج وحده ، وما ذلك الّا لما اتصف به من السجايا الاثيلة ، والهمة النبيلة ، وقد كان آية في الشهامة ، ومكارم الاخلاق ، وطهارة الاعراق ، والتناهي في الحلم ، وبوداعته يضرب المثل .

قام هذا الامير العظيم بالامر وشؤون افريقية مضطربة ، والفتن مضطرمة ، والدولة دائلة ، والهيبة زائلة ، والخلاف ناشب ، والامر ناهب ، فشمر عن ساعد الجد فازال خطوبها ، وتلافى كروبها ، وضبط اعمالها ، وجمع اوصالها ، ورتب اجنادها

واقام اوتادها ، ونظم عمرانها ، وأحكم سلطانها ، ودعم بنيانها ، ووطد اركانها ، بعد ان أباد نفوذ اول مقارع له ، واكبر منازع لسلطانه احد الزعماء من الملثمين المعروف (بيحيى بن غانية) المشتهر « بالميورقي » لاستلائه على الجزائر الشرقية من الاندلس — ميورقة ومنورقة ويابسة — .

كان يحيى هذا من بقايا امراء المرابطين . فلما تغلب الموحدون على الاندلس استبد الميورقي بتلك الجزر وأخذ يحشد الجيوش والاساطيل لمقاومة خلفاء عبد المؤمن بن علي . ثم انه تدافعت به مطامعه الى التسامي على افريقية فاغتصب بعض مراسيها كقابس وصفاقس والمهدية وشاغب الولاة من بني حفص وقد انحاش اليه أو شاب من الغوغاء ورعاع من الاعراب ووثب على الحاضرة وحاصرها اياماً معدودات ، وبقي يحيى يغدو ويروح بين الثغور الافريقية يجبي الاتاوات والضرائب من الضعفاء المستكانين ويذيق الحاضر والبادي انواعاً من الظلم ويسومهم اصنافاً من العسف والجور واستمر على ذلك الى ان جلس الامير أبو زكرياء على عرش الامارة فعمد اليه بنفسه واعتزم انزاله من صياصيه ومطاردته عن اعماله ، فقصده بجهة قابس — سنة ٦٣١ — وبعد معارك عنيفة تمكن من تشريد جموعه ، والاستيلاء على ربوعه والايقاع باتباعه من اهل الشر وبطانة السوء ، وبذلك انمحت شوائب الفساد ، ووقى الله البلاد والعباد ، من اهل البغي والعناد .

فلما تمت الهزيمة بمعسكر ابن غانية وانحازت عنه ذخائره وتشتت شمله فر ناجيا بنفسه الى الصحراء الكبرى في قلة من بطانته ، وبقي شريداً طريداً ينتاب التلول القاحلة والمفاوز القفرة حتى هلك حتف انفه في تلك السنة ، فانقرض بمهلكه أمر الملثمين من بلاد افريقية والمغرب والاندلس وانقطع اثره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، والامر كله بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

بـاب البنات

كان ليحيى بن غانية ثلاث بنات ليس له سواهن من الولد . فلما أحس بدنو أجله وايقن بخيبة امله، وتلاشى ما له وولده بعد موته أراد ان يأمن على بناته وفلذات كبده من غوائل الدهر وتصاريف الايام ، فسيرهن من الصحراء الى عدوه بالامس وخصمه المبير الامير ابي زكرياء ، التجاءً الى محاسن شيمه وكرمه ، وسوابغ عدله وحلمه ، ولما وصلن الى الحاضرة اقتبلهن الامير على الرحب والسعة وانزلهن منزل الكرامة ، أثيرات مغبوطات ، فأقمن في ظل ظليل ، وعيش بليل .

قال العلامة ابن خلدون[1] : « فاحسن الامير أبو زكرياء كفالتهن وبنى لهن بحضرة ملكه داراً لصونهن معروفة لهذا العهد (بقصر البنات) واقمن تحت جرايته وفي سعة من رزقه مقصورات معضولات لوصأة أبيهن بذلك » .

قلت : وكان هذا القصر بالحومة المعروفة اليوم بحومة (باب البنات) من مدينة تونس سميت بذلك لمجاورة النزل المتقدم المخصص بهن .

اما الاميرات الميورقيات فقد كن سريات النفوس ، عاليات الهمم ، لهن أنفة وشمم ، يتهن على الدهر زهواً وكبراً توارثنهما عن الامارة بالرغم من غروبها عن بيتهن . ومما ينقل عن زهوهن ان ابن عم لهن خطب احداهن الى ابي زكرياء . فبعث الامير قهرمانة قصره تبلغها الخطبة على لسانه وقد جعل ضمن خطابه :

– هذا ابن عمك وأحق الناس بك ، لقرابته منكن وكفاءته لكن .

فكان جواب المخطوبة :

---

(١) كتاب « العبر » ج ١ ص ٢٥٩ طبع الجزائر

– لو كان لنا ابن عم ما كفلنا الاجانب ! – ولم تزده على ذلك كلمة .

فامسك عنهن أبو زكرياء ولم يتغير لهذه المجابهة العنيفة لما رزقه الله من الحلم وسعة الصدر . بل زاد في اكرامهن ، وبالغ في رعايتهن ، وقد هلكن عوانس وبلغن من الكبر عتيا ، ولم يمتعن بحظ من الزواج .

قال ولي الدين ابن خلدون : اخبرني والدي – رحمه الله – انه ادرك واحدة منهن أيام صباه في سني العشر والسبعمائة تناهز التسعين من السنين ، قال : لقيتها وكانت من أشرف النساء نفسا ، واسراهن خلقا ، وازكاهن خلالا » .

نشرت القرون على مؤسس الاسرة الحفصية غبار الزوال ، وادرجت اخباره في اكفان التاريخ فلم يبق منها بين ايدينا الّا ذكرى سيرته العطرة ، وأثر حلمه الخالد ، تتناقلهما الافواه ، وتشهد بفضله ومواهبه الدفاتر والاقلام ، على تعاقب الاجيال ، وتكرر الايام والليال ، وسيبقى اسمه حيا ناميا على توالي السنوات ، ما لقيت في مدينة تونس حومة تسمى (باب البنات)

***

المآثر الخالدة

ان أبهى ما تتجمل به امرأة مما يفوق رونقه قلائد العقيان ، والجواهر الحسان عمل صالح يخلد لها ذكراً عاطراً على مدى الايام ، وتعاقب العصور مثال ذلك الاميرة الحفصية أم الخلائف واسمها ﴿ عطف ﴾ زوج ابي زكرياء الاول ووالدة المستنصر بالله المتقدم الذكر .

فقد مرت الليالي ومضت ، وتداولت الدول وانقرضت ، وبليت الثياب الفاخرة واندرست ، وعمل هذه الاميرة الكريمة باق شاهداً حياً ، ودليلا قويا على صفآء نيتها وجليل مقصدها !

ذلك انها أنشات على نفقتها أول معهد علمي مستقل أسس بالحاضرة التونسية واعني به (المدرسة التوفيقية) ، ابتنت رحمها الله هذه المدرسة من خالص مالها فاكملت لوازمها في حدود سنة ٦٥٠ – ورتبت مصالحها ابتغآء مرضاة الله واحتساباً لوجهه الكريم . وجعلت حذو المدرسة جامعا عرف (بجامع توفيق) قبالة زاوية الشيخ الزليجي بربض رياض السعود (رحبة الغنم الآن)[1]

ولله در شاعر شبيبتنا صديقي الماجد محمد الشاذلي خزنه دار الذي رصع تاج ذكرى هذه الاميرة التونسية بقوله :

ان غاب شخصك يا ذات الجلال فما ... غابت مآثرك البيضا اياديها
في تونس ظهرت اولى المدارس عن ... يديك تستمطر الرحمى لبانيها
مرت بها الناس اجيالا وذكرك في ... أفواهها يتفشى بالدعا فيها

***

كما يحفظ التاريخ في بطونه اثراً حميداً وتذكاراً مجيداً لما صنعته الاميرة ﴿ فاطمة ﴾ أخت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الملقب بالمتوكل على الله ، فانها اسست مدرسة (عنق الجمل) . وما كادت تفتح هذه المدرسة ابوابها – في خلال

---

(١) ابن خلدون ج ١ : ٤٥٣ – المؤنس ص ١٢٨ – وتاريخ ابن أبي الضياف (قلم) – وجامع توفيق هو المعروف بجامع الهوآء .

سنة ٧٤٢ - حتى اقبل عليها طلاب العلم افواجاً من كل فج عميق[١] رغبة منهم في اقتناء الفنون من منهلها الصافي وموردها العذب خصوصا وقد ندبت هـذه المؤسسة الفاضلة لادارتها وللتدريس بها مسنداً عالما وشيخا كاملا الا وهو قاضي الجماعـة في ذلك العصر محمد بن عبد السلام التونسي[٢]. فاغترف الافريقيـون من فيض علمه الهامع كمالات العرفان ولم يزالوا بهذا المعهد منتفعين حتى الآن .

وواضع حجراً في أس مدرسة أبقى على قومه من شاهد الهرم !

البئية الحفصية

أي باحث محقق ، وأي كاتب مدقق يستطيع أن يرفع لنا الستـار ، ويكشف الاثار ، ويحقق الاخبار ، عن اوائل العصر الحفصي وما بلغت اليه الهيئة الاجتماعية التونسية اذ ذاك من التقدم في النظام والتربية والتعليم ، لا سيما بعد قدوم المهاجرين الاندلسيين خلال القرن السابع واندماجهم في البودقة التونسية ونقلهم الينا تقاليدهم وصناعاتهم ومعائشهم وأسباب تعليمهم ومسالكهم في التربية والتهذيب .

---

(١) تاريخ الدولتين للزركشي طبعة تونس ص ٥٨ - والخلاصة النقية ص ٧٢

(٢) احد الائمة المالكية الاعلام ، ومفخر من مفاخر تونس العظام ، ولي قضاء الجماعة بالحاضرة فكان قائما بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم ، وتخرج بين يديه جماعة من العلماء الفطاحل كعبد الرحمن ابن خلدون وابن عرفة ونظرائهما ودون المؤلفات الاصولية الجليلة وتوفي سنة ٧٤٩ وكانت دار سكناه في نفس المحل الذي به الآن المدرسة الخلدونية العامرة .

اما مبلغ علمنا نحن عن شكل تأليف الهيئة الاجتماعية والحياة المنزلية لذلك العهد فانه ما زال قاصراً مقتضبا ملتقطا بكد وعناء من غضون الرحلات ومعاجم التراجم والادب نظراً لقلة عناية العلماء ومتأخري الاخباريين بتدوين الاخلاق والعادات والرسوم وغيرها مما له تعلق بالشؤون القومية ومجهود الشعوب لنيل الرقي ضمن مباحث التاريخ . والسر في ذلك اعتبارهم اياها انها تقاليد راسخة غير قابلة للتحول والتبدل ولو مع تغير الحوادث وتكيف الاسباب وتنوع العوامل وتعاقب العصور ؛ فانصرفوا عن ضبط وتدوين ما كان يدور حولهم من المشاهدات والمحسوسات ولم يرووا لنا شيئا من ذلك يجدر بالباحث العصري ان يبني عليه حتى يعلم كنه ما وصل اليه اسلافنا في التمدين والحضارة والعمران . وانه ليأخذنا العجب حينما نقع على نبذة أو طرفة تدلنا على مبلغ ما وصلوا اليه فيما سلف من القرون في الانظمة الاجتماعية وطرائق التعليم ومسالك التربية ، هذا ان لم نقل اننا نتنكر له ونعده شيئا غريبا ولا سبب لذلك غير الجهل .

هذا أبو محمد عبد الله التجاني — وهو شاهد عيان لذلك الزمان — يخبرنا : « ان لاهل تونس في الادب باعاً مديداً ، فلم يكن منهم من لا يقول الشعر حتى النساء والصبيان[1] » .

لكن ليت شعري كيف تأتى للاجيال الحفصية ان تبلغ هذه المنزلة العالية من التهذيب ؟ وكيف كانت أساليبهم في تلقين العلوم ونشر الآداب حتى نتوصل لفك هذا المعمى ؟ — هذا ما لا نستطيع الوصول الى معرفته بما لدينا الآن من المصادر

---

(١) كتاب الشهب المحرقة للشيخ احمد برناز التونسي (قلم) والمنتخبات التونسية للمؤلف ص ١١٤

التاريخية والموارد الادبية لانها تقصر عن افهامنا كنه تلك النهضة . اللهم الّا اذا توفقنا الى اعادة ما تلاشى من المكتبات وضل من المؤلفات، يومئذ نستطيع ان ندرك شكل تأليف تلك البئة الراقية ونقدر عظمة تلك المدنية الذاهبة .

وهذا الرحالة العبدري [١] نجده يذكر استطراداً أديبة تونسية من ادبآء ذلك العصر ويروي لنا قطعة نفيسة من شعرها الجيد ولم يفدنا عنها بشيء يعرفنا اياها غير قوله : انها كانت بقيد الحياة وقت مروره بتونس – سنة ٦٨٨ – وانها تنسب في أسرة ذات حسب وعلم ونبوغ .

وهاك غاية ما توفقنا الى معرفته من امرها بعد البحث والتنقيب :

زينب التجانية

هي زينب بنت أبي اسحاق ابراهيم التجاني . من بيت عريق في العلم ، راسخ في الادب ، مكين في الرئاسة والتبرز ؛ نشأت في محيط راق ووسط عال فلبست صبغته واكتست بعبقريته فصارت درة في العقد ومثالا للجوهر الفرد .

كان أبوها من فطاحل كتاب الدواوين الحفصية وابآء دهره الفائقين المجيدين [٢]

---

(١) ابو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن احمد بن مسعود شهر العبدري ، خرج حاجا من بلده حاحة بالمغرب الاقصى – سنة ٦٨٨ – فزار القطر التونسي ومصر والحجاز وألف رحلة حافلة مشتهرة باسمه لم تزل مخطوطة تكلم فيها عما شاهده بتلك البلاد وترجم لمن لقي من العلماء بكل منها .

(٢) يوجد شيء من ترجمته بكتاب « ازهار الرياض ، في اخبار القاضي عياض » للشهاب المقري التلمساني (قلم) .

وكان كذلك أعمامها واخوتها . وكان أصغرهم أبو الحسن علي وهو الثاني عشر مدرساً من آبائه على نسق طيب كلهم جلسوا للتدريس ونشر العلم بمدرستهم[١]. وندر منهم من لم يصنف كتبا قيمة في الاداب ونحوها ولم ينبغ في القريض البديع[٢] . فلا غرو ان تكون ﴿ زينب ﴾ بين كرام آلها كالوردة الفيحاء وسط الروضة الغناء .

اما ما نقله العبدري من شعرها فقد انشده اياه أخوها الاديب ابو الحسن المتقدم . فمن ذلك قولها ملغزة فيمن اسمه تميم :

يقولون لي هذا حبيبك ما اسمه ... فما اسطعت افشاه وما اسطعت أكتم
فقلت اسمه ميم وحرف مقدم ... فهذا اسم من أهوى فديتكم افهموا

ومن قطعة لها في وصف شعر :

اذا انسدلت منه عليها ذوابة ... كغصن اراك عانقته أراقم
أثيث طويل فهو يستر جسمها ... اذا نزعت عنه الملابس آسحم
كأن الصباح ارتاع من خوف طالب ... بثار فالوى بالدجى يتكتم

قلت : ينظر مقطوعها هذا الى قول رصيفتها الشاعرة الاندلسية حمدة بنت زياد الوادي آشية من ابياتها المشهورة :

اذا سدلت ذوائبها عليها ... رأيت البدر في أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق ... فمن حزن تسربل بالحداد

---

(١) رحلة العبدري

(٢) اوردنا تراجم افراد البيت التجاني وشيئا من منتخباتهم النثرية والشعرية في كتابنا الكبير « ديوان الادب التونسي » الذي عزمنا على ابرازه متى تمت موادّه

وعلى كل فالواقف على هذه النتفة من شعر الاديبة التجانية يعلم انه كلام عارفة بقوانين الصناعة ، متمكنة من الادب الغض تمكنا صحيحا ، ذات عارضة سيالة وخيال متسع مما لا يقع مثله الّا لحذاق الادبآء .

لكن ليت العبدري الناقل لهذه النبذة المقتضبة زادنا من نظمها وعرفنا بشيء من خبرها حتى يستدل من القلادة على النحر ويصدق الخبر الخبر .

***

أم العلاء العبدرية

اسمها ﴿ سيدة ﴾ بنت عبد الغني بن علي العبدري وتكنى أم العلاء . أصلها من غرناطة عاصمة الاندلس ووفد أبوها مهاجراً الى تونس اوائل القرن السابع فولدت له هذه الفاضلة .

وقد اعتنى والدها بتربيتها وتعليمها قاصداً بذلك منحها خطة شريفة وتأهيلها لحرفة التعليم النسائي الامر الذي يكنفها ويكفيها مؤنة الاحتياج على فرض فقدانه مدة حياتها . فكانت رحمها الله آية في حفظ القرآن بارعة في علوم . مليحة الخط . تجتمع بالاندية العلمية وتناضل في المسائل المهمة .

وقد علمت بالحاضرة في بلاط السلاطين من بني حفص وفي دور الاشراف والاغنيآء ونسخت بخطها مراراً « احيآء علوم الدين للغزالي » الى غير ذلك من مؤلفات الاداب والتربية الشرعية ولم تزل مثابرة على تعليمها وعبادتها وايثارها الى ان أقعدتها عن ذلك زمانة الزمتها منزلها نيفا عن ثلاثة اعوام فخلفها على مباشرة التعليم في تلك المدة بنتان لها كانت أهلتهما للقيام مقامها .

وتوفيت - رحمها الله - بتونس يوم الثلاثاء لخمس خلون من المحرم فاتح سنة ٦٤٧ ودفنت بمقبرة القصبة المعروفة بالسلسلة .

ومما يجدر بنا ان نورده في حسنات هذه العالمة الجليلة هو ان جميع ما كانت تتقاضاه من أجر تعليمها وما كان ينالها من الجوائز الملوكية التي كان أمرآء بني حفص يتبرعون بها عليها خصصته كله لفقراء أسارى المسلمين وفك عراهم من قيد النصارى لا سيما في عصر كانت فيه لصوصية البحر (القرصنة) ضربا من الاتجار [1] .

فهذه نهاية الايثار وغاية الورع والاحسان تقبل الله عملها المبرور وسعيها المشكور بمنه تعالى وكرمه .

***

صارة الحلبية

ومن أديبات هذا العصر الزاهي ، الوافدات على الحاضرة التونسية جارية شامية اشتهرت بالادب الغض والعلم الجم والفن الرائع ، وهي ﴿ صارة الحلبية ﴾ عرفها أحد معاصريها من علمآء الاندلس بقوله : [2]

---

(١) كتاب التكملة للصلة تاليف ابن الابار - طبع مجريط ج ٢ ص ٧٤٨ - وكـ جذوة الاقتباس في ذكر من دخل من الملوك والعلماء مدينة فاس - لابن القاضي المكناسي

(٢) هو صاحب كتاب « انس العاشق ورياض الحب الوامق » (مخطوط محفوظ في مكتبة لنينغراد بالروسيا رقم ٨٣٥) - راجع ماكتبه حبيبنا المستشرق الروسي كراتشكفسكي في مجلة « الاندلس » مجلد اول الكراس الثاني

« ومن المتظرفات من اهل زماننا هذا ممن فاقت نساء عصرها (صارة الحلبية) ادبية شاعرة وطبيبة ماهرة ، تتصرف بيدها في جميع الصناعات فتجيد في ذلك ، وتكتب الخط المستحسن ، وتحل الذهب بصناعة رائقة فتكتب ، وكان لها إقدام في الكلام ، ووفادات على الملوك والاشراف ،

« فممن وفدت عليه من الملوك أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصي صاحب افريقية ، دخلت عليه وهو في قصره المعروف (بأبي فهر) فسلمت عليه وأنشدت بين يديه قولها فيه :

الشرق يزهو بكم والمغرب ... وكذا الزمان يتيه بكم ويطرب
والملك والمجد والمفاخر والندى ... كل فخر على مجدك ينسب

وهي قصيدة طويلة انشدته إياها الى آخرها ، فاستحسن ذلك منها وأعجبه شعرها وإقدامها وفصاحتها وواصلها بصلة عظيمة وخلع عليها ، ثم انه ضمها الى حشمه وأقامت عنده حولا كاملا ،

ثم ارتحلت الى الاندلس فوفدت على الامير الماجد أبي عبد الله محمد بن محمد ابن نصر المدعو بأبن الاحمر على اول ولايته(٢) وهو الملقب بالفقيه إذ كان فقيها أديبا شاعراً لبيبا مقدما في الحروب فانشدته قولها :

سما لك ملكا لا يزول مجددا ... وعزا وتاييدا ونصرا مؤبدا
ارى الدهر فيما شئته لك خادما ... على كل ما تختاره لك مسعدا
وقد قرن السعد الجديد لطالع ... لملك جديد في دارة السعد شيدا

---

(٢) هو ابو عبد الله محمد بن محمد بن نصر من بني الاحمر ملوك غرناطة ، تولى من سنة ٦٧١ الى ٧٠١ هـ

وهي ايضا قصيدة طويلة فاستحسن ذلك منهـا واكرمها وواصلهـا ، وراسلت صارة هنالك جماعة من الادباء والشعراء والكتاب والفصحاء وناظرتهم فظهـرت على بعضهم واستحسن كافتهم نظمها ونثرها ، وممن راسلته الكاتب الجليـل أبو عبد الله ابن المرابط والفقيه ابو عبد الله الدراج والقاضي أبو أمية الدلالي رحمة الله تعلى عليهم

ووفدت بعد ذلك على الامير أبي يوسف بن عبد الحق المريني[1] بحضرة مراكش في يوم وصوله من المغرب اليها ، فانشدته قصيدة منها :

باليمن والسعد والتأييد والظفر	قدمت يا خير الاملاك من مصر
فكنت كالشمس بعد الغيب ملفعة	أو كالغنى جاء للمرء بعد الفقر
ملأتم الارض من قسط ومن عدل	وقلب أعدائكم بالرعب والذعر
من حط أرجله في نحو حضرتكم	أضحى مدى الدهر فى أمن من الغير

فاكرمها وخلع عليها ولم تنزل في حضرته وهو الذي أجرى عليها الراتب والاحسان حتى توفيت في ايامه بحضرة فاس بالمدينة البيضاء منها ، رحمة الله تعلى عليهـا » .

يتضح لك – ايها القاري الكريم – مما تقدم من الخبر الوارد في حق هذه الجاربة الرحالة الاديبة والصانعة الماهرة الطبيبة ما كان حظ النسآء في النهضة العربيـة ببلاد المغرب في القرن السابع للهجرة ، وكيف كانت الاديبات الفاضلات يسافرن من

---

(١) هو الامير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني صاحب المغـرب الاقصى تولى من سنة ٦٥٦ الى ٦٨٥ هـ وكان استيـلاؤه على مدينة مراكش خـلال سنة ٦٦٧ هـ وهـو التاريخ الـذي دخلت فيه أديبتنا صارة الحلبية الى المغـرب الاقصى .

اقاصي البلاد الى ادناها طلبا للاطلاع والانتجاع واظهاراً لمواهبهن ، فيسامرن الامرآء ويساجلن الفصحآء ويشاركن بالبحث في المسائل العلمية والمناظرة في فنون الادب ، وفي ذلك موعظة بالغة وعبرة لمن اعتبر .

***

السيدة المنوبية

هي عائشة بنت الشيخ أبي موسى عمران بن الحاج سليمان المنـوبي ، وامها فاطمة بنت عبد السميع ومولدها بقرية منوبة غربي مدينة تونس[1]

نشأت رضي الله عنها في حجر ابيها وقد اعتنى بتربيتها فعلمها القرآن الكريم حتى أحسنت حفظه ، ثم لاحت عليها علائم الزهد والصلاح فاراد أبوها تزويجها من احد أقاربها فلم تقبل وبقيت على عزوبتها ، وقيل انها تزوجت ثم ارتحلت الى سكنى الحاضرة بقصد الانقطاع للتبتل فقطنت منزلا خارج ربض (رياض السعود) وهو المعروف عندنا اليوم بالمزكاض حيث المقام المشتهر الآن باسمها.

وكان شأنها العبادة وغزل الصوف وهو مورد حياتها ، حكي في مناقبها انها ختمت القرآن الشريف في حياتها الفا وخمسمائة وعشرين مرة . وكانت رضي الله عنها تبر بالفقرآء والمساكين وتكرم المحتاجين فما تحصل عليه من عمل يدها تصرفه في سبيل الله.

---

(١) مقتطف من كتاب خطي عنوانه : « مناقب السيدة المنوبية » تأليف امام جامع منوبة ولم يذكر اسمه – والخلاصة النقية ص ٦٤

يروى عنها انه اذا بات بجيبها درهم ولم تتصدق به تقول : « الليلة عبادتي ناقصة » وهذا ما يدل على خيرها وحنانها . وكانت ربما تنقطع اياما عن الذكر ولما تسأل عن ذلك تجيب : « لا خير في ذكر اللسان ما لم يكن القلب حاضراً » .

واخذت السيدة عائشة علوم اليقين عن الصالح الجليل وحبر الصوفية الكبير الامام ابي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، ولها مع شيخها اخبار مذكورة واحاديث مشهورة يرويها محبوها خلف عن سلف .

وشاع خبر صلاحها بتونس وقطرها فلم تزل معظمة مكرمة الى أن أجابت دعوة ربها ضحوة يوم الجمعة الحادي والعشرين من رجب سنة ٦٦٥ على عهد السلطان المستنصر بن ابي زكرياء الحفصي ، وحضر جنازتها غالب علماء تونس في ذلك العصر ، وآخر كلام سمع منها عند احتضارها : (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) .

توفيت رضي الله عنها عن سن عالية في السادسة والسبعين من عمرها ، ولم تدفن بمنزلها بل دفنت بروضة القرجاني خارج شرف المركاض كما في التعريف القديم .

فما اشبه حياتها وخلالها بالسيدة رابعة العدوية العابدة الشهيرة وما احقها بقول الله تعلى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) .

***

شاعرة شريفة

يناسب ان ننظم في سلك شهيرات القرن السابع أديبة حسيبة نبغت بمدينة بجاية التابعة اذ ذاك للمملكة الحفصية . وقد كانت بجاية في ذلك العهد من أغزر حواضر افريقية ثروة واوسعها عمرانا واعرقها تمدنا وقد اشتهر من ابنآئها في العلم والادب عدد كثير نخص بالذكر منهم : أبا الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسني فانه تفرد من بين معاصريه في الشعر الرائق والغزل الراشق لا سيما الموشحات المطربة التي سارت سير المثل . فمن قطعة له كتب بها من السجن الى والي المدينة :

سلام كعرف المندل الرطب في الجمر ... والّا كما هب النسيم على الزهر
فلله در مقلتين بعبرة ... تعبر فوق الخد عن كامن السر
وقد راعني ايماض برق بذى الغضا ... كما ابتسم الزنجي عن فلج الثغر
بدالي أن الليل أورى زناده ... ولا نار الانور برق له يسري
ونار باكبادي أكابد مرها ... وقلب سليم قلب في لظى جمر
وما طائر فوق الغصون مسرج ... كمن بات مقصوص الجناحين في وكر
فلم انس توديع البنين مصفدا ... واصغرهم يجري وأدمعه تجري

وكان لابي الطاهر هذا ابنآء نجباء أشهرهم نبلا وفضلا الآنسة : (عائشة)
قال القاضي ابو العباس الغبريني[1] : كانت عائشة أديبة أريبة فصيحة لبيبة وكان

---

(١) كتاب « عنوان الدراية فيمن عرف من العلمآء في المائة السابعة ببجاية » طبع صديقنا العالم محمد بن أبي الشنب - الجزائر سنة ١٣٢٨ ص ٢٥

لها خط حسن . رأيت كتاب الثعالبي « يتيمة الدهر » بخطها في ثمانية عشر جزءا وفي خاتمة كل سفر منه قطعة شعر من نظم والدها رحمه الله . وهي نسخة عتيقة ما رأيت أحسن منها ولا أوضح . ولقد رأيت منه نسخا كثيرة منتقدة الّا هذه النسخة ولقد يجب ان تكون هذه النسة أصلا لهذا الكتاب . وهذه النسخة من جملة الخزانة السلطانية ببجاية »

ومن شعر الشريفة عائشة :

أخذوا قلبي وساروا واشتياقي أودعوني
لا عدا ان لم يعودوا فاعذروني أو دعوني

ويقال انها بعثت بهما الى ابي علي حسن بن الفكون شاعر وقته وطلبت منه معارضتهما أو الزيادة عليهما . فكتب لها معتذراً عن الجواب : ان الاقتصار عليهما هو الصواب .

ولها ايضا :

صدني عن حلاوة التشييع احتنابي مرارة التوديع
لم يقم أنس ذا بوحشة هذا فرأيت الصواب ترك الجميع

ولها في معنى المداعبة وقد خطبها رجل من الاشراف كان أصلع فلم تجبه الى مراده وقالت هذه الابيات تداعب احدى صاحباتها من الفتيات الكعاب :

عذيري من عاشق أصلع قبيح الاشارة والمنزع
يروم الزواج بما لو أتى يروم به الصفع لم يصفع
برأس حويج الى كية ووجه فقير الى برقع

ولها رحمها الله ظرائف اخبار ، ومستحسنات أشعار ، لم نقف منها الا على ما اوردنا.

حومة العلوج

بحاضرة تونس من شمالها الغربي حارة أهلية ملاصقة لسور البلد يفتح اليها باب من ابواب المدينة تسمى : (حومة العلوج) وكثيراً ما يتساءل التونسيون عن سبب تعريفها بهذا الاسم.

كانت العادة عند السلاطين من بني حفص التسري بافرنجيات ينتقونهن من سبي البحر ويتخذونهن جواري يطلق عليهن اسم (علاجي - جمع علجية) فمتى ولدن اميرا ميزن من بين الحظايا بالاجلال والتعظيم وصار لهن كلمة ونفوذ في البلاط الملوكي.

ومن عجيب ما يلاحظ ان غالب السلاطين من بني حفص أمهاتهم نصرانيات اعتنقن الاسلام بغير اكراه - اذ لا اكراه في الدين - وقد حصلن على مرتبة علياء في تدبير شؤون المملكة والاهتمام بمصالحها ، وطالما وفد عليهن أقاربهن من بلاد الافرنج فيلاقون بمزيد الحفاوة والاكرام.

ومثال ذلك ما وقع على عهد السلطان أبي عمرو عثمان حفيد أبي فارس عبد العزيز فان أمه كانت رومية - والمظنون أنها من سواحل ايطالية الجنوبية - اسمها ﴿ ريم ﴾ أسرها القرصان وسيقت الى تونس مع غيرها وتزوجها الامير محمد المنصور. فلما بويع ابنها بالولاية - سنة ٨٣٩ - وكان آخر رجال الحفصيين وخاتمة انجادهم، وفد عليه جمع من اخواله وأقاربه مهنئين له . فاكرم نزلهم واسكنهم الربض الملاصق للقصبة حيث مقره فعرف من ذلك الحين باسم (حومة العلوج)(١)

---

(١) المونس ص ١٥٩ - والحلل السندسية (قلم) والخلاصة النقية ص ٨٣

هذا السبب هو الذي علل به مؤرخونا وجه التسمية . لكن في اعتقادنا ان تلك الحارة كان يسكنها ايضا أعوان الجند النصارى الذين كان سلاطين بني حفص يتخذونهم لحرسهم . على أن البيان الاول لا يمنع الاخذ بالثاني . والله تعالى أعلم.

مريم الزناتية

وقعت في كناش للمؤرخ الاديب الشيخ محمد السنوسي التونسي جعله لتقييد ما يعثر عليه من نوادر الادب حين كان يجمع في مواد معجمه الكبير المسمى « بمجمع الدواوين التونسية » فمن جملة ما وجدت به بيتين لامرأة من القيروان اسمها (مريم الزناتية القيروانية) ولم يذكر الشيخ رحمه الله المصدر الذي التقط منه اسم تلك الشاعرة الافريقية ولا البيتين المنسوبين اليها.

قالت مريم :

تعلمت علم الكيمياء جميعه وطوقت فكري من مزاياه أطواقا
فلو يلقى جزء من هواي ولوعتي على الف خال أصبح الكل عشاقا

وما أشك ان امثال هذه الاديبة المجهولة كن كثيرات في خلال العصور الزاهرة بالمدنية العربية في هذه الديار . لذا رأيت من المناسب اثبات اسمها بين صاحباتها التونسيات اللاتي اتصل بنا خبرهن عسى ان يأتي من يبعثها يوماً من مرقدها

وفيما يلوح لي ان مريم هذه كانت من شواعر آخر الدور الحفصي - القرن الثامن او التاسع للهجرة - كما يظهر ذلك من نسق نظمها ولاسيما من ذكرها للكيمياء وقد ولع الناس وقتئذ به ايما ولوع - والله سبحانه عالم بامره.[1]

---

(١) اقول اني عثرت في مقبرة الجناح الاخضر بالقيروان على لوح رخامي مرسوم

الحاسرة جاسرة

من طريف ما أورده الاديب التونسي أبو القاسم محمد الجديوى في احدى تآليفه[1] الحكاية الآتية الدالة على نباهة بدويات قطرنا في مدة هذا العصر الحفصي وعلو نفوسهن واستقلال طباعهن ، قال :

« ومنه ما حدثني به قاسم المدعو باعوج الضلوع بن منصور بن حمزة من اولاد أبي الليل الهلاليين ، قال : تزوج والدي امرأة طرفية من صحارينا لا يعرف لها أصل أصيل وادخلها على ابنة عمه وكانت زوجته الاولى ، ثم انه أضاف هذه الطرفية الى بيت زوجته فكبر ذلك على ابنة عمه ولم تطق نفسها هذه المضائقة فغاضبته والتحقت ببيت ابيها واقامت عنده مدة ، فلما كان بعض الايام بينما كان النجع سائراً في طلب الكلاء اذ جئنا الى شعب قد تشعبت طرائقه وتفرعت ثناياه ومسالكه ، فعربدت الابل وابت ان تقطع الشعب وانحبس جميع النجع بسبب ذلك وتوقف الرواد والادلاّء ولم يتوفقوا الى المسلك ، فجاء والدي الشيخ منصور الى مفرق الثنايا ولم يهتد

به بعد الديباجة المناسبة : « هذا قبر مريم بنت عبد الله الهواري ، توفيت رحمها الله في شهر شعبان المكرم عام ثمانية وخمسين وسبعمائة » — ولا يخفى ان هوارة هي قبيلة تتصل بنسبها الى زناتة ، فلا يبعد حينئذ ان تكون مريم المدفونة هنالك هي نفس الشاعرة المشار اليها فيما تقدم لا سيما وان نقش القبر قد اعتني به غاية الاعتناء مما يدل على عظيم شان المقبورة به ،

(١) كتاب « رفع الازار ، عن محاسن الحوار » مخطوط نفيس في الادب . منه نسخة خطية بمكتبتي .

رشداً والتبس عليه الامر فلم يدر كيف المخرج منه ، فنادته ابنة عمه من هودجها وقالت له :

– أين الناقة الصهباء الخوارة ؟

قال لها : ماتت

فقالت له : هل بقي شيء من ضناها ؟

قال : بكرة واحدة

فقالت له : أجعل من يأتي بها

فلما جاءت البكرة سلكت المسلك وتبعتها الابل وخرج النجع خلفها ؛ فقال لها والدي : وكيف علمت ذلك ؟

قالت له : خلف أمها كان النجع يجوز المسالك ويقطع المهالك و (ابنة الحاسرة جاسرة)[1]

قال قاسم أعوج الضلوع : فلما نزل النجع وحط رحاله جاء الشيخ منصور الى ابنة عمه وطيب خاطرها وصرف الطرفية الاجنبية الى اهلها ، وكان في المثل الذي

---

(١) حسر البعير يحسر حسرة ، اعيا وسقط وبره ، والحاسرة هنا بمعنى الآلفة بالعياء من السير حتى تهزل ، وهي من الصفات المحمودة في الابل ، فقولها (الحاسرة جاسرة) تقصد ان الناقة المعتادة بالسير والعياء وقطع الفيافي والمفاوز تكون جاسرة على سلوك الطرق والاهتداء الى ما تشعب منها ويدل عليه وصفها لتلك الناقة بالخوارة وهي الضعيفة الرقيقة الحسن ، ولا يأخذنك العجب من ورود مثل هذه الالفاظ الشاذة الاستعمال في فم بدوية هلالية في الزمان الحفصي القريب العهد منا فان كلام أعرابنا لم يزل لحد اليوم فصيح لا ينقصه الّا الاعراب ليكون عربيا مبيناً ، وفي لهجتهم الدارجة بينهم من الغريب والشاذ ما يبهت الباحث .

ضربته له ابنة عمه اشارة خفيفة الى مكانة الاصالة وقـوة فعلها في الحيوان احرى في الانسان .

سوق الكلاب

وروى المؤلف المتقدم عقب هذه القصة حكاية أخرى من بـاب الفـكاهة والانبساط ، الا انها ترشدك ايضاً الى ظرف أعرابيات باديتنا وحسن اخلاقهن وميلهن الى المزاح المباح ، قال :

« ومنه ما حدثنيه سعيد بن جبارة أحد اصحاب الركاب العلي اعـزه الله [1] . ونحن بالمحلة المظفرة بظاهر بلد قفصة [2] ، قال كنا بسوق التجار بهـا جلوساً وخطرت علينا أعرابيات تقود احداهن كلباً جارحاً ، وهي أصغرهن سنا وأكبرهن حسناً ، فقال لها احدانا على وجه المداعبة واستجلابا للكلام :

— يا اعرابية ، الكلب للبيع ؟

فانحرفت لصاحباتها وقالت لهن :

— تعالين ، تعالين ، سوق الكلاب هنا ونحن لا نعلم

ثم انصرفن فوراً ضاحكات ، وبقينا خجلين ! »

---

(١) يقصد به السلطان الحفصي أبا فارس عبد العزيز بن احمد بن محمد المتـولي الامارة من سنة ٧٩٦ الى سنة ٨٣٧ وهو آخر مشاهير سلاطين هذه الاسرة ، وكان الجدميوي المؤلف المذكور يعيش في ايامه .

(٢) يشير الى استيلاء السلطان أبي فارس المتقدم الذكر على قفصة خلال سنة ٨٠٢ وكان خالف عليه بها شيوخها من بني العابد الهلاليين ، فاسترجعها السلطان بعد حصار وقبض على الثائرين .

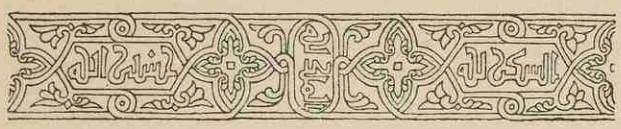

الدور التركي

تمهيد

استند آخر السلاطين من بني حفص على أمة الاسبان لدفع القلاقل الداخلية التي حدثت بالقطر التونسي في اواسط القرن العاشر فاغتنمت حكومة اسبانيا تلك الظروف الحرجة لنصب حمايتها على الحواضر الساحلية من الاقليم الافريقي . ونشأ عن تسلط هؤلاء الدخلاء تفرقة بين اهل البلد والحكومة المحلية كانت مؤذنة بخراب العمران وفقدان العلم فاندرست المعالم واندثرت القصور وتبدد السكان بالهجرة والقتل ، واضحى التمدن الحفصي أثراً بعد عين .

فما أسفر صبح القرن الحادي عشر الّا والسلطة التركية معلنة بالبلاد التونسية والبلاد كالشبح البالي مما أصابها من النكبات التي طمست آثارها وشوهت محاسنها وقرضت نحو ثلث سكانها وجعلت شطرا كبيرا من معالمها أطلالا دوارس .

فسعى الولاة الاتراك الاولون في احياء ميت الصناعة وإعادة الرونق السابق فلم يتمكنوا من ذلك الّا بعد التجاء جالية الاندلس الى القطر التونسي فارين بدينهم من طغيان الاسبان .

أنزل الدايات هؤلاء المهاجرين بالمدن والقرى واقطعوا بعضهم حول العاصمة اراضي واسعة ظهرت فيها مواهبهم ومعارفهم في الزراعة والغراسة ولهم تكن غير مدة

يسيرة حتى زهت الحاضرة بالفنون الجميلة مثل الهندسة والنقش والموسيقى والصنائع المختلفة منها صناعة الشاشية والانسجة الحريرية والخزف المطلي والزليج وغير ذلك.

وأصبح أبناء البلاد بين حضارتين متباينتين فالاولى التركية - شرقية المأخذ، والثانية - الاندلسية - عربية المنبت مقتبسة من بقايا التمدن العربي مع ما انضاف اليه من التقاليد الافرنجية، فتقلد التونسيون بكلتا الحضارتين واقتبسوا من الذوقين الشرقي والغربي ما ناسبهم من الاخلاق والعوائد والمآكل والملابس.

وهذا المزيج من التمدن هو الذي تدرج في البلاد من ذلك الحين الى ان وصل الينا على الشكل الذي نعهده اليوم ولم يعتبره الّا تغيير يسير - والى الله مصير الامور.

***

العقائل الحفصيات

قضى الله على رجال الدولة الحفصية بتبدد الشمل وتفرق الاهل لما سبق في علمه من زوال ملكهم وانقراض عقدهم.

كان محمد بن الحسن آخر ملوك هذه الاسرة - وسبحان من لا اول له ولا آخر - وكان له بنتان جميلتان زوجهما في مدة ولايته بابني وزيره محمد الرصاع من البيت المشتهر بالعلم، وكان الزوجان من أيمة جامع الزيتونة واعيان مشيخته. فلما اضطرب حبل بني حفص وتمزق ملكهم قتل الاخوان في معركة وبقيت زوجاهما مختفيتين في بعض الزوايا المهملة لا والي لهما ولا نصير الّا الله سبحانه.

ثم انتصبت السلطنة العثمانية على البلاد كما قدمنا واول من قلدته الامر هو حيدر باشا - في حدود سنة ٩٨٥ - وكان عادلا براً بالرعية ناظراً في مصالحها.

وبينما كان حيدر باشا جالساً ذات يوم بديوان القصبة اذ دخلت عليه إمراتان فقيرتان تلوح عليهما مخائل الشهامة والعفاف ومعهما بنات صغيرات . فتقدمت اليه احداهما وقالت :

— ابقى الله الوالي ، نحن بنتا محمد الحفصي وآخر من بقي من الاسرة المالكة لهذه الديار . كنا — ولا تسئل كيف كنا — كنا في عصمة الازواج وتحت ظل الدولة الزائلة ، فغدر بنا الدهر ، وتشتت الامر ، فنهبت أموالنا ، واغتصبت أملاكنا ، وآل أمر المخدرات منا الى التكفف بالاسواق ، متفرقات بعد انتظام الشمل ، حقيرات بعد العز ، حالة يسؤ ذكرها ، وان ذاع نشرها . . . فان رأى الوالي ان ينظر في أمرنا فيجعل لنا من الضيق مخرجا ، ومن الشدة فرجا . . .

كانت الاميرة الحفصية تقول ذلك والعبرات تفيض من خلف نقابها حتى بللت حجابها وقد أذابت قلوب الحاضرين وابكت من ادرك دولة أبيها الذاهبة .

فالتفت اليها حيدر باشا بعد ان اطرق ساعة وقال :

— ليسكن روعك ولتقر عينك ! فان حرمة الاسلام وعظمة السلطنة لا يسمحان باهمالكن أبدا ، وسأنظر في شانكن .

ثم انه امر أحد كتابه بتحرير سجل في ترتيب جراية مناسبة يدفعها لهن متولي دار الباشا من فواضل المال بعد خلاص مخصصات العساكر واجرى عليهن نفقة من الاقوات مثل القمح والزيت والسمن وغير ذلك تعطى لهن في اوقات معلومة من السنة ، وأوقف عليهن فوق ذلك زياتين كثيرة وأراضي شاسعة من املاك الدولة يصرف ريعها لهما ولعقبهما من بعدهما.[1]

---

(١) كتاب « المشرع الملكي في دولة اولاد علي تركي » تاليف محمد الصغير بن يوسف الباجي (خط)

وبذلك عصم حيدر باشا عقيلات بني حفص من الاحتياج وجعلهن في حرز حريز من الكفاف.

قلت وما زال الوقف الذي تبرع به حيدر باشا جاريا لحد الآن وهو المعروف في الحاضرة باسم (حبس الحفاصة) يشارك في الانتفاع بريعه نحو ثلاثمائة عائلة تونسية . ويواصلون الدعاء للمتسبب فيه بكرة وعشية.

عزيزة عثمانة

خطرت على أديم هذ البلاد مئات الآلاف من العقائل المثيلات الموسومات باللطف والجمال ، والرقة والدلال ، والبهاء والكمال ، مرتقى خيال الشاعر وصفهن ، ومطلع خواطر الناثر ذكرهن ، فهن الزهر في الاكمام ، والدراري الملثمة بالغمام فكم سبين عقولا ، وتيمن ألبابا ، وجندلن أبطالا ، وصرعن أترابا ، فيالله أين هن اليوم ؟ وأين ذكرى محاسنهن ؟

أفلت شمس الجمال ، وذوت أفنان الدلال ، وثوت القدود ، وهصرت الخدود ، وذبلت النهود ، وضاعت المحاسن ، وانطوت الاحاسن ، انطوآء زهر الرياض ، في أديم الغياض ، فمضين وكأنهن لم يدرجن ، ومضين وكأنهن أحلام . . .

اللهم إلا أفذاذاً من هذا الجنس اللطيف اقترنت حياتهن بالعظام وجلائل الاعمال بقين خالدات الذكر ، يبلى الجديدان ، ويتعاقب الملوان ، وهن باقيات بقاء الدهر .

ومن أطيبهن نشراً ، وأجلهن قدراً ، الاميرة الجليلة المنعمة (عزيزة عثمانة)

بنت أبي العباس احمد بن محمد بن عثمان داي [1] صاحبة المبرات ، ومسدية البركات ومفيضة الخيرات ، التي يجدر بالمؤرخ المنصف ان يدعوها بحق ﴿ المحسنة الكبيرة ﴾ ولا غرو في ذلك وهي باذلة المعروف ، ومغدقة الاحسان وذات اليد البيضاء ، والمحاسن الوضاء ، على ساكني هذا القطر .

أجل ! فقد نشأت هذه الاميرة الماثلة في منتصف القرن الحادي عشر في بيت الامارة واليسار والكرم ، وعنى والدها أبو العباس احمد بتربيتها وتعليمها وعين لها من فقهها في الدين وحفظها القرآن ولقنها الآداب وأصول التربية وسياسة المنزل فبرزت من خدر الابوة مثالا طيباً للطهر والصيانة والعفاف ، وذلك بفضل تلك التربية الاسلامية العالية ، وما عتم ان زوجها أبوها من احد خاصته الاكابر — قيل هو حمودة باشا المرادي — فكانت وهي زوجة راموزاً للتقوى والصلاح والبر بالضعفاء والمساكين وقضت مع زوجها حياة هنية رخية ناعمة.

ولم تك هذه الاميرة العزيزة من السيدات اللائي يبطرهن الرفه واليسار أو ممن يقعدهن عن اداء واجباتهن وقضاء فروضهن ومناسكهن بل كانت دينة خيرة عالقة بربها . ناهيك بما تجشمته من مشاق السفر الى الحجاز وركوب الاخطار والاهوال ، لادآء الفريضة فتارة على متون البحار وآونة بين لبات الفدافد والرمال ، فحجت واعتمرت وحج معها خدمها وعبيدها وحشمها . ولما عادت الى تونس أطلقت

---

(١) الداي ، هو لقب لولاة الاتراك الذين تداولوا السلطة ورئاسة الجند في تونس والجزائر من طرف الباب العالي واستمر الى ان تسنم ذروة الامارة حسين بن علي تركي مؤسس العائلة الحاكمة الآن واشتهرت المترجم لها بعثمانة نسبة الى جدها عثمان داي

المماليك وأعتقت العبيد احتساباً لوجه الله الكريم ، وابتغآء رضوانه العميم ، وتمحضت بعد ذلك للاعمال المبرورة والمساعي الصالحة المشكورة ، ووضعت وصيتها الخالدة المشهورة ، التي تجردت فيها عن كل ما تملكه من الربع والعقار وجعلته وقفاً سرمداً على أوجه البر والاسعاف والمعروف ، عكفت ملازمة لافضل القرب وأسمى الفضائل الى ان لبت داعي ربها ووافاها الاجل المحتوم فماتت محزونا عليها يبكيها الظاعن والباد وذلك في حدود ١٠٨٠ من الهجرة . ودفنت في مشهد حافل بتربتها المشهورة « بحلقة النعال » حذو المدرسة الشماعية داخل المدينة.

اما الاعمال الخيرية التي أجرتها ووقفت عليها فهي كثيرة ، منها : إقامة مرستان داخل الحاضرة - بحومة العزافين - لمعالجة أصناف الآلام وقد صار يسمى بعد (المستشفى الصادقي) . وارصدت عليه من الريع ما يخلد بقآءه ويستمر النفع به الى ما شآء الله .

ووقفت ايضا عقاراً كثيراً وجعلت ريعه ينفق على عتق الرقيق وفك العاني وانقاذ الاسير .

ووقفت كذلك على ختان أولاد الفقرآء وكسائهم يوم عاشورآء من كل عام ، ووقفت ايضا على تجهيز الابكار اللائي يثقلهن الفقر ويحول دون زواجهن ، صيانة لهن عن الابتذال وترغيباً في الزواج بهن . الى غير ذلك من الاوقاف النافعة الممتعة التي يضيق عنها الحصر ، الشاهدة بما لهذه المحسنة الكبيرة الكريمة من المزايا العالية والمآثر الغالية التي يرفل في برودها الموشاة الشعب التونسي باسره اليوم . فهي جابرة المرضى ، ومطعمة العجزة ، ومفرحة المساكين ، ومنقذة الرقيق ، وأم البنين ، وملجأ الابكار وحصنهن الحصين . وكاني بابي الطيب المتنبي لا يعني سواها بقوله :

ولو كان النسآء كمثل هذي لفضلت النسآء على الرجال !

ومن الدلائل الناطقة بكمال إحساس وشرف عاطفة هذه السيدة النبيلة وحسن ذوقها ورقة حاشيتها الوقف الذي ارصدت ريعه لشرآء أزهار كل فصل من فصول السنة توضع على قبرها في كل يوم من ورد ، وياسمين ، وخيري ، وبنفسج ، ولا عجب أن تهيم هذه الدرة اليتيمة بحب الرياحين حية وميتة فما هي الّا زهرة الزمان وربيع الدهر ! وكأني بتلك الشاعرة الاعرابية لم تعدها في الوصف حين تقول :

بانك ربيع وغيث مريع وانك هناك تكون الثمالا

نعم ! هي الآن ثاوية في ضريحها لكنها تركت لتونس من الشذى العاطر ، والذكر الفاخر ، والجميل الباهر ، ما يبقى أثره ، ولا ينقطع خبره [1] . تغمدها

---

(١) العجب كل العجب من اغفال متأخري المؤرخين التونسيين ذكر ترجمة حياة هذه المحسنة الكبيرة وصيتها ملاءٍ الافاق والعامة لاهجة بذكرها تواصل الدعاء لها - وألسن الخلق كما قيل أقلام الحق - حتى أني اضطررت للوقوف على لمعة من حياتها الى البحث الطويل هنا وهناك فالتقطت هذه النتف القصيرة من رسوم أحباسها بالاوقاف العامة ومن افواه بعض الناس .

ولامرآء ان امثال (عزيزة عثمانة) في الممالك الراقية تقام لهن النصب والتماثيل بالساحات والحدائق العمومية وتنحل الشوارع الكبرى أسمآءهن تخليداً لذكرهن وتشويقا للاقتدآء بفعالهن . ولكن لا يسعني في هذا المقام الّا ان أقول مع القائل :

والغيث ليس يبالي أين ما انسكبت منه الغمائم تربًا كان او حجرا !

ويا حبذا لو تنتبه ادارة الاوقاف الى تدارك ما فات ولو بترصيع التكية — ملجأ الضعفآء والعجزة — باسم تلك المحسنة . وأي اسم أولى وأحق بذلك الشرف من اسمها وهي له زراعة وغارسة ؟

سبحانه بالرحمة والرضوان ، وسكب على قبرها شئآبيب الغفران ، وتقبل صنيعها بالمبرة والاحسان ، وأحلها رفيع الجنان :

آمين آمين لا ارضى بواحدة حتى أضيف اليها الف آمينا !

التسامح الاسلامي

رأينا في أخبار العصور الاولى ما فتحه سكان القطر التونسي من مدائن البحر المتوسط وجزائره بقوة اساطيلهم المنشآت كالاعلام :

مواخر في طامي العباب كأنها بنآء على غير العـرآء مشيد

وقد ساعدهم على ذلك خبرتهم التامة بانشآء السفن والمراكب وتجهيزها ومهارتهم المعروفة في فن البحارة وخوض عباب المالح ، والتاريخ يشهد لهم بذلك من قديم الزمان.[1]

فلما تدلى أمر الدول الافريقية وتقاعست همم أهلها اقتصر سكان هذه البلاد على غزو البحر (القرصنة) واغتصاب من يجدونه من النصارى بالسواحل الافريقية أو بالسفن المنحازة فيسوقون سبيهم الى الحواضر الشرقية ويبيعونه باسواقها . وكان سوق البركة بتونس من اعظم أسواق الرقيق الابيض . وقد اعتاد التونسيون من عهد بعيد – لاسيما الاسر المالكة منهم – التسري بالجواري الافرنجيات المجلوبات بالصفة الآنفة لما كانوا يستحسنون من بياض الوانهن وجمالهن الوضاح وانقطاعهن عن أواصر القرابة لان لحمة المصاهرة قد تكون مضرة بصاحب السلطاة والسلطان . وربما يخطر بالبال ان انقطاع الجواري عن اوليائهن يجعلهن مهضومات الجانب

(١) راجع ما قاله ابن خلدون في مقدمته في الفصل الذي عقده لقيادة الاساطيل .

مبخوسات الطالع لقلة نصرائهن وضعف عصيبتهن ، لكن الامر بالعكس ، والخبر الآتي أقوى دليل على صحة ما نقول :

ففي حدود سنة ١٠٧٥ أسر بعض البحارة التونسيين فتأة افرنجية من ناحية مدينة فرينسة بشمال ايطاليا . وكانت هذه الكعاب ذات جمال فتان فأتي بها الى الحاضرة وأهديت الى مراد باي المرادي صاحب البلاد . فادخلها مراد في جملة جواريه وما لبثت حتى تزوجها وصارت (باية) أميرة.

وقد ملك حبها شغاف قلبه فنفذت كلمتها وعلا صيتها ونبل قدرها وكانت مع ذلك مصرة على تدينها بالمسيحية ولم تحمل على تركها عملا بآية (لا اكراه في الدين) ولم تزل كذلك الى ان مات زوجها مراد وامتلك ابنها رمضان باي الايالة التونسية – سنة ١١٠٨ - فازدادت بذلك سطوة ومكانة فكان ولدها يستشيرها في مصالح الدولة ويقتدي برأيها في معضلات الامور ، وهي أول من أدخل آلة الارغن (البيانو) الى تونس لتتسلى بها في غربتها . ثم بعد عامين ألم بها مرض عضال وماتت على عقيدتها فاغتم رمضان لمصاب أمه ولبس عليها الحزن ، ومن جملة ما وفى لها به ان دفنها على الطقوس المسيحية وابتنى على قبرها الكنيسة القائمة الآن قرب باب قرطاجنة[1] وهي أول كنيسة أنشأت بالحاضرة في العصر الاسلامي بل أول معهد ديني مسيحي احدثه أمير مسلم [2]

فانظر يا رعاك الله الى أين بلغ تسامح المسلمين واحترامهم لمعتقد المخالفين في عصر كان الاسبان يضطهدون عرب الاندلس لمجرد تدينهم بالاسلام ويحولون جبراً مساجدهم كنائس . ولله عاقبة الامور .

---

(١) قلت : هي كنيسة الارثودكس الآن وكان وضعها الاول لمذهب الكاثوليق

(٢) الخلاصة النقية ص ١١١ - وابن ابي الضياف ج ٣ (قلم)

الدور الحسيني

تمهيد

اعترى السيادة التركية في القطر التونسي – اوائل القرن الحادي عشر – وهن أدى الى تلاشي سلطتها بسبب استبداد بعض زعماء الاجناد الغير الاكفاء لادارة شؤون البلاد . وقد نشأ عن ذلك تعب عظيم للسكان بما ينجر لهم من المشاغبات المستمرة والقلاقل الداخلية التي آلت بالقطر الى خراب المعالم وفشل العزائم ومما زاد الطين بلة ظهور عداوة خيالية حدثت من جرائها حرب مشئومة بين الايالة التونسية والايالة الجزائرية لاقى من هولها التونسيون انواع التشتيت والهوان ، ولم يكن لاستتباب الامن وازالة الروع من طائل لو لم تنتصب الامارة الحسينية على أريكة المملكة التونسية – سنة ١١١٧ – وقيام مؤسسها الامير (حسين باي الاول) بتمهيد الراحة واصلاح ما انتشر من عقد عمران جمالها ، وبذلك تسنى لاهل البلاد الرجوع الى حياتهم السلمية واشغالهم الحيوية . فسعدت المملكة وامتلات أيدي سكانها بالمكاسب وقد أثاروا الارض وعمروها وتنافسوا في الصناعات والخلال الحميدة – والناس على دين أمرائهم – فكان هذا الشهم المبرور يحرضهم على الاقتصاد والتوسع في أسباب التكسب تحريض الاب الرؤوف المشفق لابنائه البررة ويصرفهم بحكمة سياسته عن الاسراف في وجوه الترف[1].

---

(١) تاريخ ابن ابي الضياف : الجزء الثالث

زخرف اللبـاس

من النوادر اللطيفة الدالة على اهتمام المولى حسين باي بمصالح الشعب وحرصه على حفظ العوائد القومية والاخلاق من التلاشي ما اثبته رواة التاريخ [1] :

قيل دخل يوما دار بنته ﴿ فاطمة ﴾ بباردو ، وكانت من أحسن نسآء زمانهـا جمالا ، واوفرهن عقلا وكمالا ، فرآها بحزام مثقل بالذهب وانواع الجواهر الثمينة ، فسألها عنه ، فقالت له :

ـ اشتراه لي خديمك ، تشير الى زوجها ابن اخيه علي باي ـ فسأل حـالا بعلها عنه فقال له :

ـ انه من عمل ابنآء بلادك ، وعين له الصانع ، فارسل الى هـذا الاخير ولمـا حضر قال له :

ـ لولا أنه لم يتقدم مني نهي عن ذلك لعاقبتك اذ أن إتقان الصناعة وتحليتها غير محصور في كثرة الذهب أو الفضة ؛ ونهاه ان يعود لمثله.

ثم ان حسين باي عاد الى منزل ابنته واخذ الحزام ومزقه وقال لها :

ـ انك من بنات تونس فلا تخرجي عن عادة اخواتك من نسآء البلاد فيهلك الناس بسببك في الاقتداء ـ واهل الرئاسة والاغنيآء هم في كل ارض قادة العامة وأسوتها ـ فاحذري يا بنيتي أن تكون أسوة سيئة اذ أخشى ان يتغالى النساء في تقليد قميصك المطروز وعبائك المزركش وحزامك المجوهر ، فيفتقر الرجال في تبذير

---

(٢) الحلل السندسية : جزء ٣ - وابن ابي الضياف

المال في البذخ وزخرف اللبـاس ، وبذلك تذهب ثروة البـلاد ادراج الرياح ، ولا أخالكما ترضيان بذلك.

وبعد ان القى الامير هذه الكلمات المؤثرة قامت ابنته وبعلها وقبلا يده ووعداه بالامتثال ، في الحال والاستقبال .

أم الامرآء : آمنة

آمنة – وتدعى منانة – بنت الامير علي باي بن حسين بن علي باني البيت الحسيني ، وأمها جارية من اعلاج القرج اسمها (محبوبة) كان تزوجها علي باي في الجزائر مدة اغترابه مع اخيه محمد في طلب الملك .

تزايدت آمنـة خلال عام ١١٧٢ وتربت مع اخيها حمودة في قصـور باردو وزاولت برفقته القرآءة وحفظ القرآن الكريم على المربي العالم حمودة باكير فأخذت عنه ما يلزم من فقه الدين ومبادي النحو والعربية والحساب ، وشبت في ذلك المحيط الراقي الذي لم تفارقه بعد ان تزوجت بابن عمها محمود بن محمد الرشيد باي.

ولما تولى اخوها حمودة باشا الامارة – سنة ١١٩٦ – وسافر بالمحلة في تفقد الاوطان استصحب معه أمه محبوبة وابن عمه وصهره محمود باي وكذا السيدة آمنـة ، فتعرفت ببلدان المملكة وزارت معالمها المشهـورة مثل ضريح الصحـابي الكبير أبي زمعة البلوي بالقيروان وقبر الصحابي ايضا أبي لبابة بقابس ، فكانت اينما تحل تترك من الصدقات وآثار المبرات ما تجد ثوابه مقدماً عند الله

وحظيت آمنة مدة حياتها بسعادة نادرة فانها شاهدت اعتلاء اخيها حمودة باشا الى ذروة الامارة وشاركت بعد وفاته في صعود حليلها محمود باي للملك في وقائع سجلها

التاريخ يطول شرحها هنا . روى الوزير احمد بن ابي الضياف – وكان شاهد عيان لتلك الحوادث – ان في يوم ولاية محمود باي (تاسع المحرم ١٢٣٠) جمعت زوجته بنت عمه ابنيها وهما : حسين باي وشقيقه مصطفى باي واحضرت لهما المصحف وتعاهدا عليه في وفاء كل منهما لاخيه ومعرفة الصغير لحق الكبير في التقدم ، وتبرأت ممن نكث منهما العهد ، ودعت عليه وهي مكشوفة الرأس » ثم قال عقب ذلك : « سمعنا منهما ذلك مراراً »[1] وقال في مكان آخر من تاريخه :

« وكان بين الاخوين (حسن ومصطفى باي) من المحبة والالفة ما لم يسمع بمثله ، أحكمت عقد ذلك أمهما »[2]

لكن الامر الذي يوجب على التاريخ تخليد أثره وتسجيله في حياة هذه الاميرة الجليلة هو اهتمامها الكبير بمستقبل البيت وحفظ نسله سالما ، مسألة اجتماعية من الاهمية بمكان مكين ،

تلقينا مشافهة من ثقات حفدتها انها قبل وفاتها بقليل جمعت افراد العائلة المالكة على مأدبة أعدتها لذلك وعلى أثرها أبدت من النصائح العالية ما ينفع سياسة الملك ، ثم بسطت من القول في مضرة تزويج شباب الاسرة بقريباتهم – بنات العائلة نفسها – لما ينشأ عن ذلك من ضعف النسل واضوائه ولو بعد حين ،

كلنا يعلم ما قاله الرسول الهادي صلى الله عليه وسلم في هذا الشان : (لا تنكحوا القرابة القريبة فان الولد يخلق ضاويا) أي ضعيفا مهزولا – وقال الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب – رضي الله عنه (يا بني السائب ! انكم قد أضويتم ،

---

(١) تاريخ ابن أبي الضياف ج ٣ ص ٢٧١ (خط)

(٢) التاريخ المذكور ٤ : ١٨

فانكحوا في الغرائب) يعني الاباعد – والعرب تقول : ان ولد الرجل من قرابته يجيء ضاوياً[1] –

فانت ترى ان السنة الاحمدية واقوال الحكماء متضافرة على ان التزاوج بين الاقارب مضر بالنسل مضعف له بخلاف الاقتران بالاباعد يفيد الجيل المقبل صحة وسلامة ، فما اشارت به بل حتمته الاميرة آمنة على افراد اسرتها هي عين الحكمة المرتكزة على قاعدة المحافظة على الجنس ، قاعدة أيدها العلم والطب العصري واثبتتها التجارب الصحيحة.

أمتثل البيت الحسيني العمل بهذه القاعدة من ذلك الوقت ولم يخرقها الّا من عهد غير بعيد احتراماً لما تعاهد به اسلافه من زمان.

ولنختم ترجمة هذه الفاضلة بما ذكره شيخ التاريخ التونسي احمد بن ابي الضياف ، قال رحمه الله تعالى :

« وتوفيت السيدة آمنة زوج الباي وأم اولاده وبنت عمه ليلة الثلاثاء ثالث ربيع الثاني من سنة ١٢٣٨ ، وحزن الباي لفقدها حزنا لم يعهد مثله ، ووضعت على النعش أمام « باردو » واولادها ورآءها راجلين الى تربة أبيها ، وعتق عليها ما ينيف على المائتين رقبة ، وسار نعشها مظللا بصحف حريتهم ، وأفاض زوجها الصدقات وسرح المساجين وحزنت لفقدها المملكة سنة كاملة لكمالها الذي صيرها في نفوس أهل الحاضرة بمنزلة الام الشفيقة الرقيقة ، وكان أخوها حمودة باشا يبرها برور أمها ، وهي من المعدودات في افراد النسوة من جهة حسب النسب : أبوها الباشا علي باي ، وجدها باني البيت الباي حسين بن علي ، وعمها وحموها محمد باي بن حسين ، وأخواها حمودة باشا

---

(١) راجع كتاب « احياء علوم الدين » للامام الغزالي

وعثمان باي ، وزوجها الباشا محمود باي ، وولداها الباشا حسين باي ومصطفى باي ، وما منهم الّا من تولى الامارة ، والى ذلك يشير العلامة الشيخ ابراهيم الرياحي من قصيدة في رثائها :[1]

سكنت فسيحاً في الجنان ظليلا وقطوفها قد ظللت تظليلا
لا تحسبوها في الثرآء مقيلها يهوى الثرى أن يكون مقيلا
بنت الهمام ابن الحسين علي الملك الذي اتخذ الصلاح خليلا
أم الملوك وأختهم وكفى لمحمود أمير المؤمنين حليلا

فاطمة عثمانة

هي فاطمة بنت محمد بن عثمان بن الحاج حسين بن احمد بن محمد بن عثمان داي ، نشأت هذه الفاضلة نشأة عفاف وصيانة في خدر بيت ابيها وكان من اعيان العصر ، فلقنت تقاليد التربية الاسلامية العالية ، وزودت من المعارف ما هو كفيل بان يصيرها ربة منزل كاملة . ولما شبت وترعرعت زوجها أبوها بشاب من ذوي الاقدار واصحاب الرتب الدولية – وهو محمد قائجي – فولدت له ولداً سمي علياً – ويدعى علالة – ثم توفي الزوج وبقيت مدة هاجلة على صغر سنها فخطبها حينئذ ولي عهد المملكة الامير حسين بن محمود باي العصر ،

آثر حسين باي الاقتران بفاطمة عثمانة لا لنسبها الرفيع وجمالها البديع فحسب بل لما اتصفت به من النحائز العالية والاخلاق الحميدة التي ميزتها من بين قريناتها

---

(١) ابن أبي الضياف ج ٥ ص ٦ وما بعدها (خط)

ذوات الحسب من بنات تونس ، لاسيما وبيت الامارة في حاجة وقتئذ الى جلب خواطر السكان وتأليف النفوس حول العرش الحسيني ، فتزوج بها في حدود سنة ١٢٢٢ وتبنى ولدها علالة قائجي وانزله منزلة ابن الصلب واغتبط بصحبتها أيما اغتباط مدة ولايته العهد ، قاضياً اوقاته بين مباشرة احوال البلاد وقد ألقيت مقالدها اليه لكبر سن والده ، وبين التنزه بقصر المرناقية – خارج تونس – في زمن الربيع وبقصر العبدلية بالمرسى في زمن القيض.

نقل رواة الاخبار في خلال عام ١٢٣١ – ١٨١٨ مسيحي – وفدت على حاضرة تونس زوجة سلطان الانقليز جورج الرابع وهي الملكة (كارولينه دي برانشفيك) بقصد النزهة والاطلاع على المملكة فاحتفل الباي بمقدمها وكلف ولي عهده بالقيام بحق الضيافة فتفنن الامير حسين في تعظيم نزلها واكرامها ، وكانت فاطمة خير معين له على هذه المهمة ، من ذلك ان الملكة كارولينة رغبت في فداء أسارى النصارى المقيمين بالحاضرة فسبقتها الاميرة فاطمة بتسريح كافة الاسارى خدمة قصور الامارة من غير فداء اكراماً لها واجلالا للضيافة ، ولقد حمدت لها الدولة الانقليزية هذه المزية وكاتبت حماها برفع جزيل الشكر للمنعمة على عالي احساسها الانساني ، ولقد متع الله تعالى الاميرة فاطمة بحياة سعيدة رغدة في ظل زوجها الذي تربع على دست الامارة بعد ابيه – رجب سنة ١٢٣٩ – ورزقه منها ابناء نجباء توارثوا الملك بعده منهم محمد والصادق وعلي .

ولم تزل في عزها الشامخ الى ان لبت داعي ربها الكريم مأسوفاً عليها من سائر طبقات الناس . وعلى ذكر وفاتها أورد الوزير احمد بن ابي الضياف العبارة الآتية منوها بسجاياها الغالية وعلو منصبها القومي ، قال رحمه الله[1] :

---

(١) تاريخ ابن ابي الضياف ج ٤ ص ٢٨ (قلم) .

« وفي عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ١٢٤٢ توفيت زوجة الباي وأم بنيه ، وطليعة يمنه ، حفيدة عثمان داي بمرض أصابها عقب الولادة ، ودفنت من الغد في موكب مشهود في تربة عم ابيه ، وحزن الباي لفقدها ورؤية صغار ولدها بعدها ، وزعزع المصاب طود ثباته ، وأراه من فجائع الدهر ونكباته . ولبس هو ورجال دولته شعار الحزن عاما كاملا . ويحق لها ذلك فقد كانت من الكرم وعلو الهمة والسياسة في جلب القلوب بتحبيب زوجها بالمكانة المكينة ، ترى نفسها واحدة من نسآء هذه المدينة ، توقر الكبيرة وترحم الصغيرة ، وتجهز اليتيمات ، وتعين عن النوائب ، وتعرف للناس اقدارهم ؛ اذا وقعت وليمة عند احد من اعيان الحاضرة ولم يبعث اليها في استعارة مصوغ ونحوه من نوافل الولائم عادة تبعث اليه بعد تمام الوليمة احدى خدمتها مهنية وتقول له :

– ان عادة بلادنا ان صاحب الوليمة يستعين باقاربه في حاجاتها ولوازمها ، وفي المثل (صاحب التاج يحتاج) وساءني حيث لم أعرك في وليمتك يداً ولا لسانا الى غير ذلك من الكلام المنظوم في مثل هذا الاسلوب ، المالك لاحرار القلوب ، ترى الفضل لمن زارها وأم دارها ، قابلها الله تعالى برحمته وجزيل احسانه . »

***

تربية التونسيات المنزلية

أصبح البحث عن تربية الفتاة المسلمة ، وكيف يجب ان تكون ، من اعضل المسائل الاجتماعية واعقدها ، وقد أفاض كتاب الشرق في هذه المسألة الحيوية سيولا من المداد ملات أودية الصحف والمجلات وسدت فراغا كبيرا من المكتبات العربية العصرية وصارت الشغل الشاغل للافكار والعقول . فمن منكر لاصل مشروعية

تعليم المرأة ، مشنع على القائلين به ، ومن مشط يطلب لها المساواة بالذكور في التعليم ، ومن معتدل يذهب الوسط بين الرائين ، ولا يرى ابداً غناء للمرأة عن تلقي العلوم الضرورية مثل القراءة والكتابة . والحساب . ودروس الاشياء . واللغة . والتاريخ . وتقويم الممالك . والاداب الاسلامية . وتدبير المنزل . وممارسة الصناعة النسائية . لتكون المرأة قوة حية نامية في الامة . دافعة للنهضة . تشغل مركزاً ممتازاً في الهيئة الاجتماعية الاسلامية بعد ان تخلت عنه منذ قرون.

ولم تزل هذه المسألة الحيوية مدار أخذ ورد بين كتاب العربية وتدقيق علماء الاجتماعيات من المسلمين حوالي قرن كامل وستبقى كذلك الى ما شاء الله حتى يجد لها المسلمون حلا مرضيا لا غبار فيه.

ومن يستطيع أن ينكر على ابناء الشرق انصرافهم بكليتهم لحل هذه المسالة العويصة ؟ وهي مسالة مسائل جميع الامم . وحلها أعجز فطاحل علماء الغرب . بل يحق لهم ان ينصرفوا اليها قبل غيرها لا أقل عشرة تحصل فيها توقعهم في اشد انواع الارتباكات والاضطرابات . وكل حل يجدونه لا يكفل لهم اعزاز الملة الاسلامية يكون نصيبه الفشل والرفض.

نحن اليوم – معاشر المسلمين – في احتياج شديد الى فتيات مسلمات متعلمات لكفالة مستقبلنا . يفقهن حالة العصر الذي وجدنا فيه . محرزات على تربية قومية صحيحة نافعة تنهض بالامة وتوقظ الفكر القومية . والّا تحول الدواء داء . وانقلب الوجود فناء . وساءت العقبى – والعياذ بالله !

معلوم ان فتيات اليوم هن أمهات الغد . فاذا أسيئت تربيتهن . وكان تعليمهن ناقصاً او شاذاً عن افكار الامة . دب من قبلهن دبيب التراخي الى معاقد الروابط المليه فتضعف القدوة . وتختل الملكات ويسقط كيانها . وحينئذ يكون وجود هؤلاء

الفتيات بلاءٍ عظيما على الملة ، وخطراً مدلهما على القومية ؛ وفي هذه الحال يكون تعليمهن وتربيتهن على تلك الصورة الناقصة شراً من استجهالهن بلا خلاف .

جاءت الشريعة الاسلامية بالحث على تربية وتعليم الاناث مثل الذكور سواء بسواء . وهي الشريعة السماوية الوحيدة التي ساوت في ذلك بين الجنسين ؛ فقد ورد في الاثر عن سيد البشر : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . » كما ساوت بينهما في الحقوق والتكاليف ولم تجعل فرقا في ذلك بين ذكر وانثى وغاية ما هناك انها ميزت الرجل بحق الرياسة وجعلته قواما على المرأة نظراً لما اودع الله في خلق الجنسين ؛ فقد وهب الرجل مضاء العزم وقوة الارادة ؛ واعطى المرأة رقة العواطف وجمال الاحساسات . فالرجل للحكم ، وتيسير الاعمال ، والمرأة للحب ، وتأليف القلوب . وجعل الرجل قواماً على المرأة ضمن القيود المقررة في معاجم الشريعة أمر لازم لتمكين اللحمة بين الجنسين . ولا يلزم من تميز الرجل بحق الرياسة اختصاصه دون المراة بما سوى ذلك من الحقوق ، وهذا لاخلاف فيه بين المسلمين. وانما النزاع في مفهوم العلم الذي ينبغي للمراة ، ونوع التربية التي ترقي عواطفها ، وتقوي شعورها ، وكيف يجب ان تكون .

هذه هي المسالة الشاغلة للمسلمين اليوم .

لم يكن من مقصدنا ابدآء رأينا – فى هذا السفر التاريخي – في الطريقة المثلى التي ينبغي اتباعها في تربية المرأة – مع احتياجنا الى ذلك – وانما غايتنا الاقتصار على عرض تراجم شهيرات بلادنا ، وجمع شوارد أخبارهن ، والتنويه بذكرهن ، والتخليد لشهرتهن ، احياء لفضيلة الاقتداء بالسلف الصالح ، عسى ان ترتسم فتياتنا العصريات أثرهن . وينسجن على منوال الصالحات منهن . فيمددن ايديهن الى الرجال ويتعاون معهم على ترميم ما تداعى من وحدتنا ، وتشييد ما تهدم من صروح مجتمعنا

حتى يتراجع الى القطر شبابه . ويعود اليه رونقه واهابه اذ لا عبرة أبلغ ، ولا موعظة أجمل من سوق التاريخ .

ولكن لما كان من أنفس ما يجب تدوينه ضمن هذه الاخبار ، ويلتحق بالبحث عن الحقائق والمعالم والآثار ، مبحث التربية الاجتماعية والمنزلية للبنات المسلمات خلال العصور الاخيرة بالمملكة التونسية الى عهد الاحتلال الفرنساوي ، فقد أحببنا ان نذكر مستوجزاً عن هذه الطريقة المتبعة في الحاضرة ، والقيروان ، وسوسه ، والمهدية ، ونابل ، وباجة ، وغيرها من المدائن الكبيرة ، وهي وان اختلفت في بعض الجزئيات التي تناسب حال كل مدينة فانها متفقة من حيث الاصول والتطبيقات ، ولذلك لا نرى فائدة في التفصيل .

توجد في احيآء مدن المملكة دور معينة معروفة بالصيانة والعفاف والتقوى والخبرة بالصناعات اليدوية مثل : الخياطة والفصالة والتطريز والغزل والنسج والتشبيك الخ تعرف (بدار المعلمة) يؤمها البنات من سائر الطبقات على النحو المعروف في المدارس اليوم ، فيقطعن فيها سحابة النهار منكبات على معاطاة الاشغال المنزلية وتعلم الصناعات وهن اللآئي يقتنين أدوات التعليم مثل : الابر ، والمقصات ، والحلق ، والخيوط ، وآلات الرسم والتطريز (كالقرقاف) ونحوه مما يعد لصوغ الاقمشة باسلاك الذهب والفضة وزركشتها بالحرير . والمعلمة تقوم بتدريبهن على مختلف الصناعات وتلقينهن فروضهن الدينية والآداب وغير ذلك مما ينبغي لتثقيف عقولهن وتربيتهن ، فيتدرجن فيها ماهرات متعلمات ، يقاسمن الرجال الاكتساب والاعمال ، ويساعدنهم على توفير الثروة العمومية في البلاد .

يستفاد من كتب التاريخ والتراجم ان « دار المعلمة » كانت موجودة بالقطر الافريقي منذ عهد بعيد جدا فقد روى الشيخ محمد الربعي المفرغي — من اعيان

تونس في القرن التاسع – ان والدته « كانت امرأة صالحة الحال وكانت معلمة البنات تعلمهن القرآن والغزل والطرز في منزلها . . وكانت البنات يغزلن الصوف مصليات على النبي – صلى الله عليه وسلم – حسبما هي العادة في ذلك عندهن »[1]

ولدينا الآن أصناف كثيرة من المصنوعات النسائية لها رواج عظيم في السواق المملكة مثل الزربية، والبرانيس، والجبب وبقية المنسوجات الاخرى على اختلاف اشكالها وانواعها من الاصواف والاوبار والشعر والحرير، ناهيك بما يصنع منها في القيروان ونابل وقفصة والجريد وجهات الجنوب ؛ وهي آثار ناطقة بما لدار المعلمة القديمة من اذكاء قرائح المرأة التونسية، وشاهدة بفضل مالها من جزيل الفائدة، وجميل العائدة على هذه البلاد .

وقد تكون المعلمة – وليس الامر بالنادر خصوصا في الحاضرة – عارفة بالقراءة والكتابة فتعلمها للفتيات ، وتلقنهن حفظ بعض السور من القرآن الكريم وغير ذلك مما تستقيم به العبادات والشعائر الدينية .

وتمكث الفتاة التونسية ملازمة لهذه المدرسة التطبيقية الى ان تبلغ اشدها – في الغالب الى الثالث او الرابع عشر من سنيها – ثم تعتزلها وتنعكف في بيت أبويها على اقتباس التربية العائلية ، واستكمال الفضائل الاسلامية ، وممارسة السياسة المنزلية ، واشغال البيت بالطرق العملية ، وهكذا تتدربن على الحياة الاجتماعية الى ان تصير سيدة لبيت جديد .

على ان حظ الفتيات من العلوم لم يكن معدوما في الحاضرة بل رأينا وسمعنا

---

(١) كتاب ابتسام الغروس من مناقب سيدي احمد بن عروس . طبعة تونس ١٣٠٢ ص ٢٠١

بكثير من الاباء لهم عناية خاصة لتنوير عقول بناتهم ولا يكتفون ان يتقن حفظ « الجوهرة » او العقيدة السيوطية وما جرى مجراهما من متون العقائد.

نقل الشيخ احمد بن أبي الضياف في ترجمة الشيخ احمد بن عبد الله السوسي - من علماء القرن الثالث عشر - ان هذا الفاضل كان له بنات علمهن القرآن والفقه والادب وطريق التصوف » ثم قال : « وسمعت والدي انه (اي والده الحاج بالضياف ابن عمر العوني المتوفى سنة ١٢٥٤) انه اراد خطبة احداهن فاستشار في ذلك الشيخ المفتي مصطفى البارودي فقال له :

- لا تفعل فانها لا ترضى بامثالنا ولا ترى كفواً لها الّا من كان على قدم والدها في العلم والصلاح »[1]

قلت ومن يطالع كتب التاريخ التونسية يرى في هذا الدور من اخبار النساء القاربات العارفات الحافظات ما لم يكن يتوقعه.

وفيما نعلم ان المصلح التونسي الكبير الوزير المنعم (خير الدين باشا) كان عقد النية ايام وزارته على تأسيس مدرسة خاصة بالبنات المسلمات سادة لثغر الحاجة يضارع بها المدرسة الصادقية التي انشأها للبنين. ولو أفسح الله في مدة وزارته لاضاف هذه الحسنة الى جملة اعماله المأثورة المشكورة - طيب الله ثراه.

وكيفما تصورنا حالة العهد الماضي فمن الغبن ان ننكر ما لدار المعلمة من المزايا العديدة على هذه البلاد. وهي لا تعرف معهداً سواها لتربية وتعليم البنات. وقد أنبتت لنا خير الامهات. وهن وان لم يحرزن على شهادة (الباكلوريا) ولا (البروفي) غير ان معلوماتهن كانت كافية وافية لاحتياجات الامة التونسية في ذلك العهد.

---

(١) تاريخ ابن ابي الضياف ج ٧ ص ٢٢ (خط)

الم تكن جداتنا وامهاتنا ناشئآت هذه التربية القويمة ، وقد قضين اعمارهن سعيدات ، وعاشرن ازواجهن مرفهات ، عشرة الفاضلات الصالحات وأدركن أسنى الحظوظ وتمتعن باهنأ حياة ؟

أجل ! نحن لا ننكر ان حياتنا العمومية – والزمان قد استدار – تحتم علينا التوسع في المعارف العقلية بصورة لم نكن في حاجة اليها فيما سلف من العصور وذلك لاستيفآء الحاجيات والكماليات التي دخلت علينا من الحضارة الغربية ولم تكن معهودة لنا من ذي قبل . لكن لا ينبغي لنا ان ندع المرأة جانبا دون ان تنال قسطها من تلك المعارف . وهي شريكة الرجل في تحضير الشبان للمستقبل لان شبان اليوم هم رجال الغد .

وأرى انه لو تيسر لنا ترقية (دار المعلمة) بصورة مناسبة للعصر ولهويتنا واحتياجاتنا بحيث تكون بمثابة ما وجد في القطر من المدارس الابتدائية الحرة المعروفة (بالمدارس القرآنية) مع اضافات اخرى تناسب التعليم النسائي كاصول حفظ الصحة وبعض الصناعات الضرورية للعائلة ، لكان ذلك كافياً موقتاً لما نطلبه من تربية بناتنا على المبادي القومية العالية ، والله سبحانه المهدي الى سواء السبيل .

اصلاح غلط

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٥	١٠	بصاهرة	بمصاهرة
٧	١٣	كـت	كانت
١٩	٤	انقاده	انقاذه
٣٢	١٦	وانه هو	وانه هو حده
٣٤	٦	الشرق	الشرف
٣٧	٥	لـه	له
٣٧	١٥	لاستعماري	الاستعماري
٣٨	١	الـذخ	البذخ
٥٠	٤	نى	بنى
٥١	٣	ـعد	بعد
٥١	١٢	الحهاز	الجهاز
٥٢	٩	كذلك	كذاك
٥٥	٤	وقدف	وقذف
٥٨	١٠	ويرناح	ويرتاح
٦٧	١٢	لقيت	بقيت
٧١	١٣	وابآء	وأدبآء
٧٦	١٥	الجاربة	الجارية
٧٩	١٤	مسرج	مسرح
٨٧	٨	لم يعتبره	لم يعتره
٨٩	٤	بربعه	بريعه
٨٩	٧	هذ	هذه
٩٢	١٠	ملاء	ملأ
٩٣	١٣	سبيهم	سبيهم

فهرست

صفحة		صفحة	
١	اهداء الكتاب	٢٥	مهرية الاغلبية
٢	توطئة	٢٦	تربية الجواري
	الدور العربي :	٢٧	حرارة الغرام
٥	امتزاج العناصر	٢٨	خفايا القضايا
٩	إكرام ليلة	٣٠	آثار النساء
٩	الحفيدة الخطابية	٣١	ولا غالب الّا الله
١٠	صنديدة بربرية : الكاهنة		الدور العبيدي :
١٤	إحترام حقوق المرأة	٣٣	تهذيب البربر
١٦	طبق الورد	٣٥	حسب الواحد الواحدة
	الدور الاغلبي :		الدور الصنهاجي :
١٧	تمهيد	٣٧	تمهيد
١٨	شهامة عربية	٣٩	الاميرات الصنهاجيات :
٢٠	عدوة القرويين	٣٩	أم ملال
٢٠	أم البنين الفهرية	٤٥	أم العلو
٢٢	فقيهتا القيروان : أسمآء الفراتية	٤٧	فاطمة الحاضنة
٢٣	وخديجة السحنونية	٤٩	أم يوسف

صفحة	
٥١	بلارة
٥٢	خدوج الرصفية
٥٥	زحفة الاعراب
٥٦	الجازية الهلالية
٥٨	المستعمرات العربية
٥٩	ميمونة الهذلية
	الدور الحفصي :
٦٢	تمهيد
٦٣	فرجة النسآء
٦٤	مفاخر الملوك
٦٦	باب البنات
٦٧	المآثر الخالدة
٦٩	البيئة الحفصية
٧١	زينب التجانية
٧٣	أم العلاء العبدرية
٧٤	صارة الحلبية
٧٧	السيدة المنوبية

صفحة	
٧٩	شاعرة شريفة
٨١	حومة العلوج
٨٢	مريم الزناتية
٨٣	الحاسرة جاسرة
٨٥	سوق الكلاب
	الدور التركي ،
٨٦	تمهيد
٨٧	العقائل الحفصيات
٨٩	عزيزة عثمانة
٩٣	التسامح الاسلامي
	الدور الحسيني :
٩٥	تمهيد
٩٦	زخرف اللباس
٩٧	أم الامرآء آمنة
١٠٠	فاطمة عثمانة
١٠٢	تربية التونسيات المنزلية
١٠٩	اصلاح غلط

Richard & Elizabeth S. Ettinghausen
30-59

مصنفات المؤلف ونشرياته :

بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق	طبع تونس سنة ١٣٣٠
رسائل الانتقاد (النقد الادبي) لابن شرف القيرواني	طبع دمشق سنة ١٣٣٠
ملتقى السبيل (في الوعظ والحكم) لابي العلاء المعري	طبع دمشق سنة ١٣٣٠
أعمال الاعلام (في تاريخ افريقية) لابن الخطيب الاندلسي	طبع بلرم بصقلية سنة ١٩١٠
خلاصة تاريخ تونس	طبعة اولى - تونس سنة ١٣٣٦
« « «	« ثانية « «
المنتخبات التونسية للناشئة المدرسية	طبع تونس سنة ١٣٣٦
الارشاد الى قواعد علم الاقتصاد	طبع تونس سنة ١٣٣٨
وصف افريقية والاندلس ، لابن فضل الله العمري	طبع تونس سنة ١٣٤٠
كتاب يفعول (بحث لغوي) للصغاني	طبع تونس سنة ١٣٤٣
اداب المعلمين ، لمحمد سحنون القيرواني	طبع تونس سنة ١٣٥٠
التبصر بالتجارة للجاحظ	طبع دمشق سنة ١٣٥٢
شهيرات التونسيات ، وهو هذا	

مؤلفاته باللغة الفرنسية :

الاستيلاء الاسلامي على صقلية	طبع تونس سنة ١٩٠٥
امتزاج العناصر التي يتألف منها الشعب التونسي	— سنة ١٩١٧
تقدم الموسيقى بالمشرق والاندلس وتونس	— سنة ١٩١٨
بحث في دينارين نرمانيين ضربا بالمهدية	— سنة ١٩٣٠
شاهد عيان لفتح الاندلس	— سنة ١٩٣٣

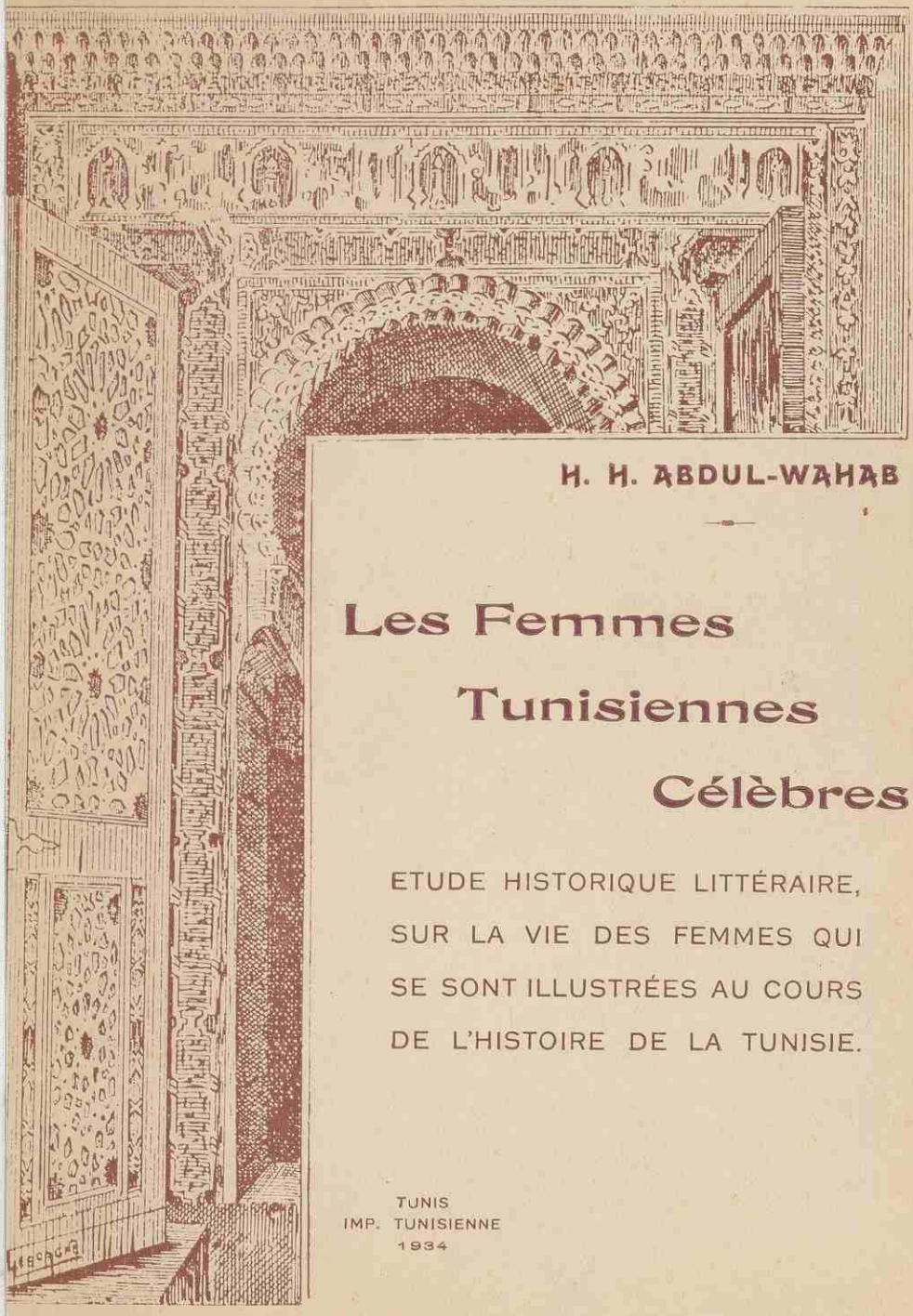

H. H. ABDUL-WAHAB

Les Femmes Tunisiennes Célèbres

ETUDE HISTORIQUE LITTÉRAIRE, SUR LA VIE DES FEMMES QUI SE SONT ILLUSTRÉES AU COURS DE L'HISTOIRE DE LA TUNISIE.

TUNIS
IMP. TUNISIENNE
1934